كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 146 – الأربعاء 6 تشرين ١ (أوكتوبر) 2010

سلاّمة القسّ

رواية تاريخية

علي أحمد باكثير

رسوم: خالد خضبر

MBI AL JABER Foundation

المؤسسة الراعية

الثريك الثقافي

معالي السيدة إيرينا بوكوفا Irina Bokova، المديرة العامة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة –اليونسكو– ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابَر MBI Al Jaber المبعوث الخاص لمنظمة اليونسكو للتسامح والديمقراطية والسلام.

إيماناً منها بأهمية نشر المعرفة وتشجيع القراءة ودعم الفن التشكيلي لمواجهة الأزمة الثقافية الخانقة في العالم العربي، **وإسهاماً** في إعداد جيل عصريّ عربي قادر على المساهمة في بناء الحضارة الحديثة والتوصل عبر التربية والعلم والثقافة إلى إدراك الديمقراطية والسلام تمشّياً مع مبادئ الميثاق التأسيسي لليونسكو، تُصدرُ **مؤسسة محمد بن عيسى الجابر** MBI Al Jaber Foundation بالتعاون مع منظمة اليونسكو / UNESCO وبالاشتراك مع كبريات الصحف اليوميّة العربيّة تؤازرها نخبة من كبار الأدباء والكتّاب ومن ورائهم الملايين من القارئين،

كتاب في جريدة

شهرياً وبشكل مجاني ومنتظم هديّةً منها إلى أكبر فئة من القرّاء في جميع العواصم العربية والعرب في العالم.

الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني ل"كتاب في جريدة" الأربعاء الأول من كل شهر على www.kitabfijarida.com

MBI AL JABER Foundation

UNESCO

« سلامة القس» والرواية التاريخية..

علي أحمد باكثير، كاتب مسرحي، وروائي، وشاعر، ومترجم من اليمن.

ولد عام ١٩١٠، في اندونيسيا لأبوين عربيين من حضرموت، حيث كان أبوه يعمل في التجارة هناك.

وفي العاشرة من عمره، عاد به والده إلى حضرموت لينشأ فيها نشأة عربية، حيث تلقى تعليمه الأوّليّ وظهرت مواهبه الأدبية في وقت مبكر، فبدأ بنظم الشعر وهو في الثالثة عشرة من عمره، ثمّ عَمِلَ مدرّساً بعد تخرجه.

غادر حضرموت عام ١٩٣١، وتوجّه إلى عدن ومنها إلى الصومال والحبشة واستقرّ زمناً في الحِجاز. وخلال هذه الفترة بدا تأثره بالأفكار الإسلامية الجديدة، خاصة طروحات السيد محمد رشيد رضا في مجلة (المنار) كما كتب فيها مسرحيته الأولى: «همام في بلاد الأحقاف» التي ظهر فيها تأثره بمسرحيات شوقي.

انتقل إلى مصر ١٩٣٤، في مرحلة مثلت انعطافة مهمة في حياته الثقافية، والتحق بجامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة حالياً» حيث حصل على ليسانس الآداب قسم اللغة الانكليزية في عام ١٩٣٩، وخلال دراسته في الجامعة ترجم مسرحية «روميو وجولييت» لشكسبير بالشعر المُرْسَل ، كما كتب مسرحيّته «أخناتون ونفرتيتي» بالشعر الحرّ، فكانت تجربة رائدة في هذا المجال.

سافر إلى فرنسا عام ١٩٥٤ في بعثة دراسية.

اشتغل بالتدريس خمسة عشر عاماً ثم انتقل للعمل في وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر وظلّ يعمل فيها.

تزوج في مصر عام من سيدةٍ مصرية، وحصل على الجنسية المصرية بموجب مرسوم ملكي في عام ١٩٥١.

كان يجيد اللغات: الإنجليزية والفرنسية والملاوية بالإضافة إلى لغته الأم: العربية.

تنوع إنتاجه الأدبي بين الرواية – التاريخية بشكل خاص – والمسرحية الشعرية والنثرية، ومن أشهر أعماله الروائية «وا إسلاماه» و«الثائر الأحمر» و« سلامة القَسّ» أما أشهر أعماله المسرحية فهي «سرُّ الحاكم بأمر الله» و«سرّ شهر زاد» التي ترجمت إلى الفرنسية و«مأساة أوديب» المستوحاة من «أدويب سوفوكليس» وقد ترجمت إلى الإنكليزية.

لم ينشر «باكثير» أي ديوان شعري في حياته لكنه نشر قصائدَ مُتفرّقات في الصحف والمجلات.

ونشر له بعد وفاته ديوان «أزهار الربى في أشعار الصبا» الذي ضمّ قصائد من أشعاره التي كتبها عندما كان يعيش في حضرموت، قبل انتقاله إلى القاهرة .

توفي في مصر في ١٠ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٦٩، ودفن بمدافن الإمام الشافعي في مقبرة عائلة زوجته المصرية.

إذا كان معروفاً عن علي أحمد باكثير إسهاماته الواضحة في المسرح العربي في الجيل الثاني من أجيال النهضة العربية، فإننا نقدّمه اليوم رائداً في مجال آخر هو مجال «الرواية التاريخية» التي تستعيد ملامحَ مطموسة من التاريخ العربي الإسلامي لإعادة إحيائها في صورة مدنية من خلال عمل روائي رصين.

و«سلامة القَسّ» واحدة من تلك الروايات التاريخية التي جسّدت مرآةً عميقة لانعكاس جانب من تلك الملامح المطموسة.

وإذا كان مِمّا يؤخذ على الرواية التاريخية في الأدب العربي، خاصة في نموذجها البدئي الذي مثله جرجي زيدان، بأنها تيه رومانسي في التاريخ أكثر من كونها كشفاً فنياً تنويرياً، وبكونها لم تستكمل الشروط الفنية للرواية، ولا تعدو سوى نوع من العبث بالمدوّنات وإعادة شحنها بوقائع مُتخيّلة ذات بعد أيديولوجي، فإن روايات «باكثير»، في هذا المجال، مثّلتْ مُقاربة حذرة للتاريخ، باعتماد نسقه الأصلي ومحاولة التدخل في المساحات الحرة والتفاصيل الاجتماعية لخلق تراجيديا يقتضيها النص.

لقد كتبت هذه الرواية في سياق نزوع فني اتسمت به تلك المرحلة، فقد بدأ نجيب محفوظ من التاريخ، في معالجته الفنية براوياته الثلاث الأولى: «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة» وبينما كانت روايات نجيب محفوظ تلك قد تحرّكتْ في طبقات التاريخ الفرعوني البعيد، فإن «باكثير» اتجه إلى فضاء آخر، هو الفضاء العربي الإسلامي. وكان يجد نزوعه نحو هذا التوجه ضرورياً بفعل شيوع ظاهرة الدعوات الإقليمية. لهذا فإن «إحياء روح الأمة ظلت رائدي في ما كتبت من مسرحيات وقصص» كما يقول.

ومن هنا سنجد أنّ ما تخلقه مدوّناتُ التاريخ من قلقٍ فني في المساحة السردية في العمل الروائي التاريخي، قد تؤدي إلى تمدُّد بنيته الحكائية بين التخيل والواقع، ولعل هذا ما دفع نجيب محفوظ إلى مغادرة هذه المنطقة تماماً. أما «باكثير» فإننا نجدهُ في الجانب المقابل قد ظلّ محافظاً على خياراته، ودأب على إغناء عالمه الروائي بخيارات جديدة، مستفيداً من تيارات الثقافة العروبية في ذلك الوقت، وكذلك «لأنّ أحداث التاريخ التي تبلورت وتخلصت من التفاصيل» كما يقول، تتيح للكاتب حرية أفضل في العمل الفني بما تتحمّله من استيعاب الرموز والإيحاءات، حيث تبقى الدلالات الكبرى مجالاً حيوياً وحراً لمقاربتها من قبل الكاتب.

تعدُّ « سلامة القس» أوّل رواية منشورة لباكثير، حيث صدرت عن «لجنة النشر للجامعيين» وذلك في العام ١٩٤٤، بعدما فازت بالمرتبة الأولى مناصفة مع رواية نجيب محفوظ «رادوبيس» في الجائزة التي كانت تمنحها السيدة «قوت القلوب الدمرداشية» وهي ابنة مؤسس الطريقة الدمرداشية في التصوف عبد الرحيم الدمرداش، وكانت تكتب الرواية بالفرنسية. ثم تحولت رواية « سلامة القَسّ» إلى فيلم سينمائي غنائي لسيّدة الغناء العربي: أم كلثوم.

تدور أحداث الرواية بين مكة والمدينة في أوائل القرن الثاني للهجرة، وتسرد فصول حبٍّ عاثرٍ تحوّلَ إلى حبٍّ مُستحيل في ظروف اجتماعية وسياسية جعلت منه نموذجاً تراجيديّاً صريحاً للحبِّ العذريّ.

لكن من أين استقى «باكثير» قصة هذا الحب العاثر بين شاب عابد زاهد، ومغنية شابّة؟

يقول أبو الفرج الأصفهاني في فصل «ذكر سلامة القس وخبرها» في الجزء الثامن من كتاب الأغاني[كانت سلامة مولّدة من مولّدات الْمدينة وبِها نشأت – والمولدة هي الجارية المَولُودةُ بين العرب، والتي تَنشأُ مع أَولادهم، ويُعلِّمونها مِن الأدب مثل ما يُعلِّمون أولادَهم– أخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السمح وذويهم فمهرت. وإنما سميت سلامة القَسّ لأنّ رجلاً يُعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قُرّاء أهل مكة، وكان يلقّبُ بالقَسّ لعبادته، شُغِفَ بِها وَشُهِرَ، فغلب عليها لقبهُ. واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سُليمان، وعاشت بعده.]

من رواية الأصفهاني هذه، نجد أنّ أبطال هذه الرواية هم أشخاصٌ حقيقيون، نعرفهم من كتب التاريخ ومصادر الأدب العربي، وتكمن أهمية هذا العمل في أنّهُ جعل العديد من شخصيات ذلك العصر، وأعلامه تلتقي في فصوله، حتى وإن كانت بينها مسافةٌ ما في تلك الحقبة التاريخية التي عاشوا بها.

ورواية «سلامة القَسّ» هي رواية التثاقف مع التاريخ، وفي الوقت عينه، تستفيد من معطيات التجربة مع الحاضر، فقد كتبها «باكثير» بعدما أبحر إبحاراً عميقاً في المصادر التاريخية، وتتبّع مصادر هذه الحكاية وتفاصيلها في التراث العربي وخاصة الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ومصارع العشاق للسراج وأخبار النساء لابن الجوزي وسواها، وبعد أن عاش زمناً لا بأس به في البيئة الأولى التي عاش فيها أبطال تلك الرواية، فجاء العمل ينطوي على تماسك فني وقدرة على الإمساك بالحدث وإدارته، والربط بين أحداثه.

تسلط هذه الرواية ضوءاً على جانب من طبيعة الحياة الاجتماعية ما بين مكة والمدينة، وتعيد تقديم الجانب الحضاري من الإسلام، بنكهة فنية تخرج التاريخ من صرامة وثائقيته التدوينية، نحو حراكه اليومي الحي، من خلال مقاربتها نموذجاً للحبِّ الرصين في دولة بدأت تتجه نحو المدنية.

كما تقدّمُ هذه الراوية صورة المرأة في المجتمع الإسلامي خلال العصر الأموي، بطريقة أخرى مُختلفة، وبعيدة عن نمطيتها المعهودة، إذ لا يعيد الكاتب تقديم الجارية رمزاً مُشخصناً للمتعة الجسدية، وإنما يقدّمُها نَموذجَاً اجتماعيّاً مُتفاعلاً، وإن ظلت تخضع لجانب من التقاليد الاجتماعية لذلك العصر. وقد أثارت الرواية في حينها ردود الأفعال المتباينة حول هذه المعالجة بالذات.

يستخدم «باكثير» في هذه الراوية بلاغة متينة، ولغة ذات نكهة إعرابية، ولذلك فإن مفردات قاموسية ترد في سياق الرواية، قمنا بشرحها في الهوامش، تسهيلاً لمهمة القارئ، كما يورد الكاتب بعض الأشعار والمجتزآت من القصائد التي تعود لعدد من شعراء الغزل العرب في تلك الحقبة، وهو ما قمنا بنسبته إلى أصحابه اعتماداً على تخريجها من المصادر التراثية.

ومن هنا فإنّ من المهم التنبيه إلى إن جميع الهوامش الواردة في هذا الكتاب هي مما لم يرد في الأصل المنشور للرواية، وإنما هو من وَضْعِنا في « كتاب في جريدة»

محمد مظلوم

خالد خضير

كاتب ورسام وناقد تشكيلي من مواليد حزيران ١٩٥٦ البصرة، العراق.

حائز على بكالوريوس رسم من كلية الفنون الجميلة في جامعة البصرة و دبلوم عالي – إتصالات – من المعهد العالي للإتصالات ١٩٧٨.

عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، عضو جمعية التشكيليين، عضو نقابة الفنانين، عضو اتحاد التشكيليين الرواد، مدرب دولي بالشطرنج.

ألف كتاب «هاشم حنون .. الواقعة الشيئية» إصدار دار الأديب في عمّان ٢٠٠٩ وكتاباً بعنوان «الرسم – العراقي مقالات في طوبولوجيا اللوحة وشيئيتها».

كتب العديد من المقالات الثقافية والنقدية في العديد من الصحف والمجلات العربية ورسم العديد من أغلفة الكتب.

كرّست العديد من الصحف والمجلات ملفات خاصة عن فنّه مثل مجلة «ألواح – أسبانيا» و«الطليعة الأدبية» و «الأقلام».

له مدونتان الكترونيتان :

http://khalidkhkh.maktoobblog.com
http://khalidkhkh.blogspot.com

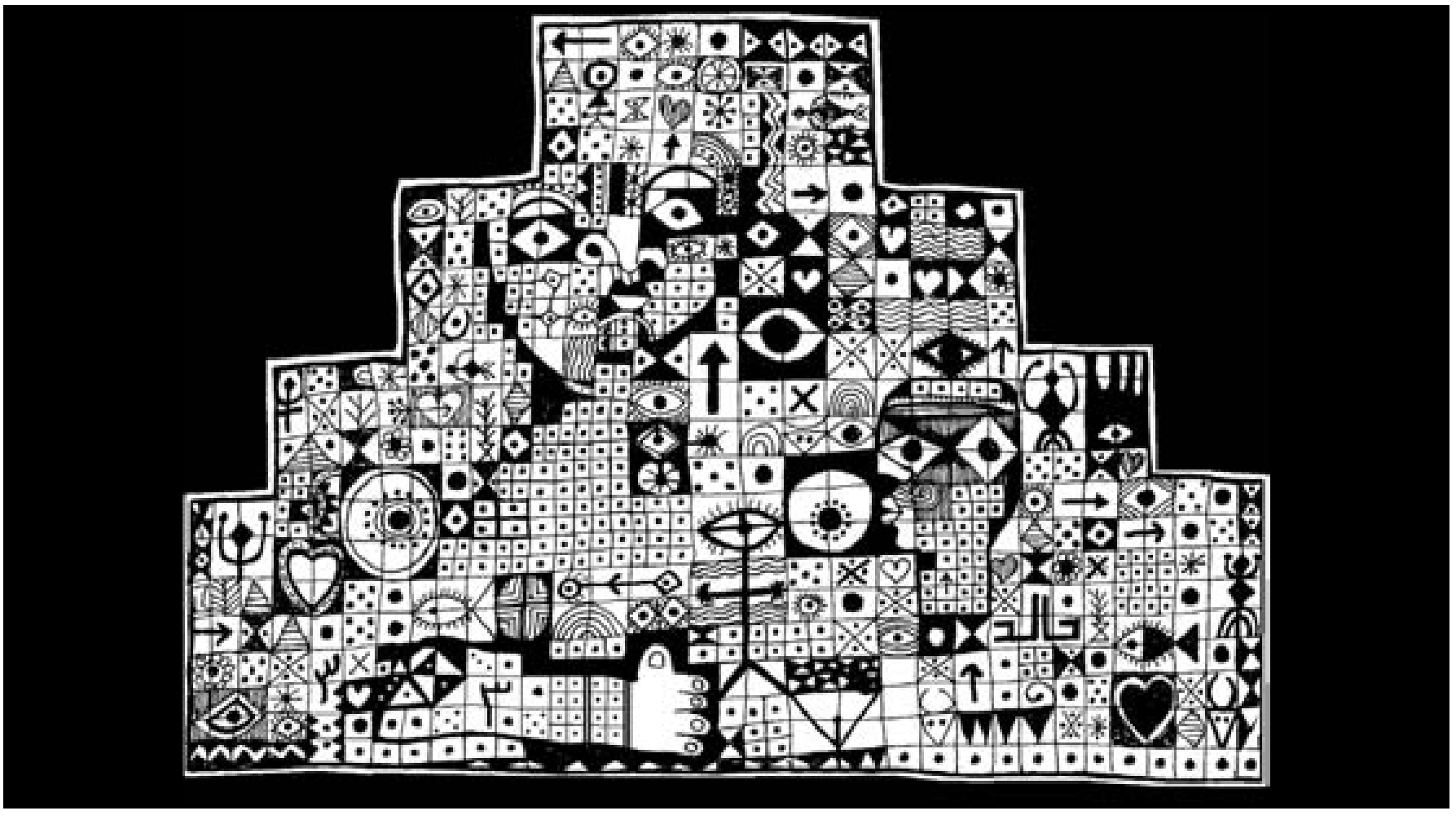

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه – محامون"

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
سنتر دلّفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 1(0) 961+
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

الصحف الشريكة

الأحداث – الخرطوم
الأيام – رام الله
الأيام – المنامة
تشرين – دمشق
الثورة – صنعاء
الخليج – الإمارات
الدستور – عمّان
الرأي – عمّان
الراية – الدوحة
الرياض– الرياض
الشعب– الجزائر
الشعب– نواكشوط
الصباح– بغداد
العرب– تونس، طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي – الكويت
القاهرة – القاهرة
القدس العربي – لندن
النهار – بيروت
الوطن – مسقط

الهيئة الإستشارية

أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
أحمد ولد عبد القادر
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سيد ياسين
عبد الله الغذامي
عبد الله يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول.

عدد رقم 146
(6 **تشرين أول** 2010)

سلاّمة القسّ*

علي أحمد باكثير

بسم الله الرحمن الرحيم «ولقد همّتْ بهِ وهمّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربّهِ» – القرآن الكريم

الفصل الأول

استيقظ عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي عمار في الهزيع الأخير من الليل على صوت الآذان الأول لصلاة الصبح، فنهض عن فراشه، وفتح كُوّةً من كُوى غرفته، فأطلّ منها على الفضاء المنبسط أمامه وقد اشتملت أقاصيه بالظلام السابغ، وبقيت تختلج في أدانيه، وعلى رؤوس التلال البعيدة من الجانب الآخر، وعلى أعالي قصور مكة البيضاء عن يمينه وشماله أطيافٌ من ضياء القمر الغارب في الأفق.

وشعر عبد الرحمن بتيّارٍ من ريح الشتاء البليلة يتسرّب إلى الغرفة، فأصلح جيبَ قميصه، وتناول رداءَه فلفّه حول عنقه، وأرخى طرفيه على صدره، فأحسّ بدفءٍ لذيذ أغراه بالعودة إلى فراشه ريثما يطلع الفجر الأول، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى أحسّ بالنعاس يداعب جفنيه وأيقن أنه سينتهي به إلى سبات عميق قد يفوّت عليه صلاة الجماعة في المسجد، وتذكّر أيضاً أنه لم يكمل تلك الليلة حزبه من القرآن[1]، فاستعاذ بالله من الشيطان، ورمى لحافَهُ عنه بقوة، وقام إلى الميضأة فتطهّر وتوضّأ ورجع إلى الغرفة ينتفض من البرد، فأماط فراشَهُ عن الحصير فوقف عليه وصلّى ركعتي الوضوء. فلما أتمّ صلاته كان أول خاطر هجم عليه أن تذكّرَ أمّه العجوزَ البرّة التي كانت تُعنى بأمر صلاته وقيامه، فكان ينام كما يشاء مُطمئناً إلى إيقاظها إياه في الوقت المطلوب.

وكانت أم عبد الرحمن امرأة صالحة ربّته منذ صغره على التقوى والعبادة، وزرعت في قلبه حبّ الفقه في الدين. وكانت تكفيه هموم عيشه وتقوم بتدبير المال الذي تركه أبوه لهما إذ مات ولما يسلخ عبد الرحمن الثانية من عمره، فتولّت تربيته وسلّمته لأحد أقاربها فحفظ عنه القرآن قبل العاشرة، وحبّبت إليه المسجد الحرام، فكان يعتكف فيه أغلب الأيام، يروى عن علمائه الحديث ويتلقّى عنهم الفقه، ولا يرجع إلى بيته في أطراف مكة إلا آخر النهار، فيجلس إلى أمه يدارسها القرآن ويذاكرها الحديث.

كان همها منذ توفى زوجها أن ينشأ ابنها الوحيد عالماً فقيهاً كسعيد ابن المسيب أو كعطاء بن أبي رباح، وكانت تدعو الله في صلاتها أن يحقّق لها هذا الأمل، فاستجاب الله دعوتها فلم تَمُتْ حتى رأت ابنها الشاب مضرب المثل بمكة في فقهه وعبادته، حتى لقّبه أهل مكة: «القس» وغلب عليه هذا اللقب حتى كاد لا يُعرف إلاّ به. وكان اسم عبد الرحمن القس عنواناً للشاب العفيف الناشئ في عبادة الله، الملازم للمسجد، الفقيه في الدين. وكان الشيوخ والكهول يروون عنه الحديث ولا يجدون حرجاً في استفتائه وتلقّي العلم عنه. واشتهر أمره فلم يكن من بيت بمكة لم يسمع به. كانت المرأة من نسائها تعلل ابنها الرضيع بأن ينشأ نشأة القسّ، وكان الرجل يتمنّى على الله لو رزقه ولداً مثله.

تذكّرَ عبد الرحمن أمه الصالحة وتذكر حسن تربيتها له وقيامها عليه وكفايتها إياه هموم العيش ليتفرغ للعبادة والعلم، فعاوده الحنين إليها واشتدّ به الحزن عليها، وكان قد خفّ عنه ذلك بعدما انصرم على وفاتِها عام قضاه عبد الرحمن في أشد الحزن وأمضّ الذكرى، حتى اعتلّت صحته وساء حاله ولكنه كان يأخذ نفسه بالصبر والرضا بقضاء الله، ويلجأ إلى الصلاة والعبادة كلما طاف به طائف من اللوعة والبثّ، مكتفياً بالدعاء لها والترحُّم عليها. وكان في ذلك يعمل جهْده بوصيتها له وهي تحتضر، إذ قالت له في سكرات الموت: «أستودعك الله يا عبد الرحمن. لا أراك تجزع لموتي وتنسى الأنس بالله».

ولكن عبد الرحمن كان رقيق القلب، دقيق الحس، فلم يفلح في اقتلاع الحزن على أمه من قلبه، فظلّ يعاوده الفينة بعد الفينة، على أنه كان لا يفتأ يجاهد نفسه على العمل بوصية أمه؛ وكان يجد في العبادة أكبر عون له على تناسي آلامه، لولا أن هذه العبادة كانت كثيراً ما تثير شجونه، لاقتران أسبابها بذكريات أمه التي كانت توقظه في الساعة المطلوبة من الليل، وتقرب له الوضوء، وتتهجّدُ معه، حتى إذا دنا وقت الصلاة نبّهته للخروج إلى المسجد، وشيّعته إلى الباب بعد أن زوّدته بشيء من التمر والقديد يتبلغ[2] به في المسجد إذا هو نوى الاعتكاف فيه، أو يفطر عليه إذا كان صائماً.

استرسل عبد الرحمن كذلك في ذكريات أمه، ولكنه ذكر مرة ما لم يكمله تلك الليلة من حزبه القرآنيّ، وكان عليه أن يكمله قبل خروجه إلى المسجد، فاقتلع نفسه من تلك الذكريات العارضة بعد أن دعا لأمه وترحّم عليها، ومسح بردائه عبرة كانت تترقرق في عينيه، ثم طفق يقرأ القرآن بصوته الحنون الحزين. وكان إذا قرأ القرآن استغرق فيه ونسي ما حوله، حتى إنه كان لا ينتبه لمرور الوقت إلا بما يأتي عليه من أجزاء القرآن، أو يتمه من سوره، فيعرف الوقت بذلك. ولكن استرساله في ذكرياته تلك الليلة قد أخذ جزءاً غير قليل من وقته، فأخطأ في تقديره فما نبّهه إلى ذلك إلا خَفْقُ النعال في الشارع، فعرف من ذلك أن جيرانه في تلك المحلّة قد أخذوا يتوجهون إلى المسجد لشهود صلاة الصبح. وكان من عادته أن يخرج قبل هؤلاء؛ فنهض قبل أن يتم حزبه من القرآن وفتح الكُوّةَ مرة أخرى فرأى نور الفجر قد انتشر في الأفق، فارتدى ثيابه ولبس خُفّيه، وألقى على كتفيه عباءته البيضاء، وتناول رداءه من الكتّان الأبيض فأداره ثم كوّره على رأسه، وخرج مسرعاً يقرع الدّرَج بِخُفّيْه حتى انتهى إلى الباب ففتحه فخرج ثم أغلقه، وانتزع أقليده[3] من الفتحة الصغيرة التي على جانب الباب فغرزه في وسطه، ومضى منطلقاً في طريقه إلى المسجد وهو يقرأ ما بقي عليه من حزبه.

سار عبد الرحمن ينهبُ الأرض بخطواته الواسعة السريعة لا يلوي على شيء؛ فسبق كثيراً من الرجال الذاهبين إلى الصلاة من شباب وكهول يمشون بقوة، وشيوخ عُجّز يخطُّون الأرض خطّاً، فخلفهم جميعاً وراءه. فقد كان على ما ألمّ به من الحزن لوفاة أمه – واعتلال صحته لذلك – قويّ البنية شديد الأسر نشيط الحركة. فلما دنا من المسجد رأى الناس يدخلون إليه أفواجاً من أبوابه المختلفة، فدخل هو من أحدها. وبينا هو في طريقه قاصداً جهة الكعبة إذ لمح على مقربة منه شيخاً هرماً قد قارب الثمانين من عمره، يدب دبيباً إلى جهة الكعبة وقد تقوس ظهره وتهدّل جفناه على عينيه، فدنا منه عبد الرحمن وحياه قائلاً: «السلام عليك يا أبا الوفاء».

فردّ العجوز السلام ورفع رأسه في شيء من الجَهْد، فظهر واضحاً وجهه ذو التجاعيد، وحاجباه الأبيضان، ولحيته البيضاء الضاربة في صدره، وجُمّته[4] المرسلة إلى شحمتي أذنيه، تطل أطرافها من تحت عمامته الخضراء كأنها الفاغية[5]؛ فلما رأى عبد الرحمن لمعت عيناه ببريق الفرح، حتى كأن شبابه الماضي كله قد عاد إليه متجمّعاً في عينيه وقال: «مرحباً يا بن أبي عمار... أهلاً بك يا بنَيّ. أين كنت أمس فقد بحثت عنك فلم أجدك؟ إني أريدك في أمر جَلل!».

فأجابه عبد الرحمن قائلاً: «خيراً يا عم».

قال الشيخ: «سأحدثك به بعد الصلاة فلا تنصرف حتى أراك».

فقال عبد الرحمن: «سمعاً يا أبا الوفاء». ونظر إلى وجه الشيخ كمن يحاول أن يعرف ما ذلك الأمر الجَلل الذي يريد الشيخ أن يتحدث إليه فيه، ولكن الشيخ لم يمهله أن قال: «انتظرني عند حلقة الدرس»، ومضى إلى سبيله إلى حيث يأخذ مكانه في الصلاة، وكذلك فعل عبد الرحمن.

الفصل الثاني

في ذلك الحين كانت عجوز شمطاءُ في نحو السادسة والخمسين من عمرها تمشي في دهليز ضيق في بيتها الصغير الواقع في طَرَف من أطراف مكة مما يلي الحَجُون. وكانت تحمل في يدها شمعة تضيء لها الدهليز حتى وقفت عند باب غرفة صغيرة فأخذت تقرعه وتصيح منادية: «سلاّمة! سلاّمة! سلاّمة! قومي يا بنت! إصحي يا جارية قد طلعت الشمس وأنت نائمة!».

وقرعت الباب قرعاً أشد من الأول فلم يجبها أحد، ففتحته فإذا غرفة ضيقة قد ظهر في جانب منها على ضوءِ الشمعة سرير رثٌّ تنام عليه فتاة مدثرة بلحاف قديم. اقتربت العجوز من السرير وهي تقول: «سلاّمة.. قومي يا شقية». وسحبت اللحاف عن الفتاة فأخذت تتمطّى وتتثاءَب وتتقلّب من جنب إلى جنب وهي تقول: «آه.. دعيني يا مولاتي نائمة – ما يزال الوقت مبكراً». قالت ذلك وأعادت اللحاف على جسمها. لكن العجوز عاودت سحب اللحاف عن الفتاة وهي تردّد الكلمات ذاتها « قومي يا شقية. الوقت متأخر، وليس مبكراً، لقد حان وقت الصلاة وأنت نائمة» نهضت الفتاة من نومها وهي تقول «آه يا مولاتي ليلة البارحة لم أنم إلا قليلاً بعد منتصف الليل، كانت دار جارنا أبن سهيل تضج بأصوات الغناء والمرح، وقد كان صوت غناء جميل يأتي من تلك الدار وأنا استمع إليه طوال الليل، كان الصوت العذب هو صوت

* اعتمدنا في نشر الرواية طبعة مكتبة مصر - القاهرة ١٩٧٧

جميلة مطربة المدينة المشهورة»

فتنهدت العجوز وقالت في لهجة يشوبها الاستنكار والشماتة: «نعم.. أي شيء يأتينا من أهل المدينة إلا هذا؟ أوّاهُ من فساد الزمان!!».

«آه يا مولاتي ما أعذب صوتها وأجمل غناءَها!».

«هل كنت تتسمعين إليها؟ ويل لك، لماذا لم تَسدّي أذنيك وتنامي؟»

انفجرت الجارية ضاحكة ضحكات متقطعة، كأنها تستغرب هذا القول من سيدتها وقالت: «أسُد أذنيّ وأنام؟ هِئْ هِئْ هِئْ هِئْ.. وهل كان في وسعي ذلك؟ إن صوتها يا مولاتي ليتسرّب إلى أذني كما يتسرب الأمل الحُلو – كما يهبّ النسيم العذب – كما يداعب النعاس الأجفان!».

وأخذت الجارية تتثنّى وتُميلُ رأسها يمنة ويسرة، ثم نهضت عن سريرها في نشوة وهي تترنم: «تن تن تن تن تن! تن تن تن تن تن تن!».

فقاطعتها العجوز وهي في حالة وسط بين الغضب والضحك قائلة: «صه، اسكتي يا فاعلة!»

ولكن الجارية لم تشأ أن تسمع لمولاتها واستمرت مترنمة: «تن تن تن تن تن!» وطفقت ترقص في انتشاءٍ وغنج وهي تغني:

«لَيْتَ هِنْداً أَنْجَزَتْنَا ما تَعِدْ وَشَفَتْ أَنْفُسَنا مِمَا تَجِدْ

وَاسْتَبَدّتْ مرّةً وَاحِدةً.. ..»[٦]

ورأت أم الوفاءِ أنها قد صبرت لسلاّمة أكثر مما ينبغي لها أن تصبر عليها، فنهرتها ووضعتْ يدها على فمها قائلة: «صه اسكتي! لم يبق إلاّ أن ترقصي وتغني هنا. هيّا اذهبي فصلّي واحلبي اللبن ثم اخرجي بالغُنَيْمات إلى المرعى لتعودي إلينا قبل الظهر».

وعرفت سلاّمة الجدّ في مولاتها فما وسعها إلاّ أن تطيع أمرها قائلة: «سمعاً يا مولاتي، هاأنذا نازلة». وأخذت عباءَتها فألقتها على كتفها متأهبة للخروج، ولكنها عزّ عليها أن لا تتمكن من إتمام رقصتها وأغنيتها فخرجت من الباب وهي ترقص وتغني: «إنما العاجز من لا يستبد».

ومشت أم الوفاءِ وراءَها تتبعها وهي تقول: «حسبك الله يا جميلة! ستفسدين علينا جوارينا».

الفصل الثالث

ونعود إلى المسجد الحرام فنرى الناس قد فرغوا من صلاة الصبح، فمنهم من رجع إلى بيته، أو انصرف إلى عمله، ومنهم من بقي في المسجد يذكر الله، أو يتلو القرآن، ويطوف بالكعبة، أو يستمع إلى حلقة من حلقات الدرس، حتى تطلع الشمس وترتفع قدر رمح فيصلون النافلة ثم ينصرفون، إلا من نوى الاعتكاف بالمسجد فيبقى فيه ولا يرجع إلى بيته إلا بعد صلاة العشاءِ.

وهذا جانب من المسجد قد استدارت فيه حلقة يستمع الناس فيها إلى أحد العلماءِ وهو يقول: «... عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).. فأبشروا أيها الناس إنكم من خير القرون، احمدوا الله تعالى لم يجعلكم من خير القرون إلا لتقوموا خير القيام بطاعته، وتكونوا بذلك أهلاً لبشارة نبيّه. ألا فمن خالف منكم كتاب الله وسنّة رسوله فسوف يحاسبه الله حِسابَين عسيرين على ذنبه، وعلى ما أضاع من نعمته...».

وكانت الشمس قد طلعتْ بحيث تحلّ الصلاة، وأخذ الناس يتنفلون، وهذا الشيخ أبو الوفاءِ يُسَلِّمُ من صلاة النّفْل ويدعو: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وإلى جانبه رجلان كهلان من أصحابه قد فرغا أيضاً من صلاتها، وأخذا يدعوان. وما انتظر الثلاثة طويلاً حتى أقبل عليهم عبد الرحمن ابن أبي عمار فسلّم عليهم فردوا عليه السلام، ونهضوا له فصافحهم وقال: «كيف أنت يا أبا الوفاءِ؟ كيف أنتما يا أخويّ؟».

فأجاب أحد الكهلين: «إننا بخير يا بن أبي عمار.. ولكن أين كنت أمس؟ لقد التمسناك فلم نجدك لا في المسجد ولا في البيت».

قال عبد الرحمن: «لقد خرجتُ عقبَ صلاة الصبح إلى ضيعتنا بالوادي أنظر في شأنها، ولم أعد إلاّ لَيْلاً».

والتفت الكهل إلى الشيخ قائلاً: «ألا تخبره يا أبا الوفاءِ بالأمر؟».

فتنحنح أبو الوفاءِ ونظر إلى عبد الرحمن نظرة ملؤها الحب والعطف قائلاً: «إنا نريد أن نتحدث إليك في أمر خطير، فأعرني سمعك يا بنيّ».

فقال عبد الرحمن: «خيراً يا عم».

واستمر أبو الوفاءِ قائلاً: «إنك تعلم ما لَكَ من مكانة في الناس لصلاحك وتقواك وفقهك في الدين على حداثة سنك، حتى لقّبك أهلُ مكة القَسّ، واعتبروك بحقٍّ خليفة عطاءِ بن أبي رباح، وأن جميلة المغنية قد وردت إلى هذا البلد الأمين ونزلت عند جيراننا آل سهيل، وقد شغلتني عن صلاتي البارحةَ والليلة التي قبلها بغنائها وباطلها، فهل لك أن تكلم الوالي في شأنها عسى أن يأمر بإخراجها قبل أن تفسد علينا فتياننا وفتياتنا».

فأمرّ عبد الرحمن يده على جبينه قائلاً: «أجل يا عم قد بلغني ذلك فاغتممت لأمره ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. إن الشيطان قد يئس من هذه البلدة الطاهرة فجاءَ أهلها من طريق الغناء».

قال الشيخ: «فاذهب الغداةَ إلى الوالي، فكلمتكم إن شاءَ الله مسموعة».

فاعترض عبد الرحمن قائلاً: «ولكني نويت الاعتكاف في المسجد هذا اليوم». فأجابه أبو الوفاءِ: «إن الاعتكاف سنة وهذا فرض عليك يا بني، فلا عليك أن تُقدّمَ الفرض على السنّة».

سكت عبد الرحمن هنيهة ثم قال: «سمعاً يا أبا الوفاءِ.. وإن كنت لا أجد لذلك فائدة كبيرة، فطالما تردّدتُ إلى الوالي أكلمه في أمر الشاعر الفاجر عمر بن أبي ربيعة إذ يتعرّض للمحصنات فيشبّب بهن ويفتري عليهن...».

ولم يملك أبو الوفاءِ نفسه أن صاح قبل أن يتم عبد الرحمن جملته قائلاً: «أجل وهل تغَنّتْ الفاجرةُ البارِحَة إلاّ بشعر هذا الفاجر؟».

ودهش الشيخ إذ سمع أحد الكهلين يسأله في اهتمام واضح: «بأي شعره تغنت؟» وكان الكهل أدرك ما في سؤاله هذا من النبوّ فعلا وجهه الخجل. ولكن أبا الوفاء لم ير بأساً في أن يجيبه فقال وقد ألان من لهجته: «بقوله – لحاه الله – ليت هندا أنجزتنا ما تعد». فتبسم عبد الرحمن وقال الكهل الآخر: «ولكني سمعت من حدثني أنه سمع ابن عباس ينشد بعض هذا الشعر في المسجد».

فعاودت الحدّة أبا الوفاء وقال: «معاذ الله، لقد كذب عليه من حدّثك. الله للناس! ألم يكذبوا على صاحبنا عطاء بن أبي رباح ويجرؤ شاعرهم أن يقول:

سَلُوا الْمُفْتِيَ الْمَكِيَّ هَلْ في تَزَاوِرٍ
وَضمَّة مُشْتَاقِ الفُؤَادِ جُنَاحُ؟
فَقَالَ مَعَاذَ اللـه أَنْ يُذْهِبَ التُّقَى
تَلاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ

فسكت الكهلان ولم يجيبا وطفق كلاهما ينظر إلى الآخر.

ولحظ عبد الرحمن حيرتهما فقال لأبي الوفاء في لهجة ناعمة: «كلا يا عم لم يكذب محدثه، لقد حدثني الثقة أيضاً أنه سمع ابن عباس ينشد بعض هذه الأبيات».

فنظر إليه الشيخ مستغرباً واستمر يقول: «ولكن الإنشاد غير الغناء الذي يغزو قلوب الناس بالإثم ويلهيهم عن ذكر الله».

فسُرّي عن الكهلين وخفض أبو الوفاء رأسه وقال بصوت رقيق: «على أي حال أنشدك الله يا بني إلا ما ذهبت الغداة إلى الوالي لعله يسمع قالتك[7] هذه المرة، فيطرد عنا هذه الفاجرة؟».

فقال: «طاعة يا أبا الوفاء.. سأفعل».

«بارك الله فيك يا بني ووفقك للخير». قال هذا أبو الوفاء واتجه صوب الباب ليخرج وتبعه الثلاثة صامتين.

الفصل الرابع

خرجت سلاّمة بشويهاتها إلى المرعى بعد أن صلّت الصبح وحلبت اللبن لمولاتها العجوز، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وكانت غداة باردة من غدوات الشتاء تحمل السائر على النشاط والحركة، وتبعث في النفوس البهجة والانشراح، والشتاءُ بمكة كالربيع في غيرها من البلدان المعتدلة، ولذلك كان سَرَوَاةُ أهل الحجاز يشتون بمكة ويصيفون بالطائف، وكان هذا عنوان السراوة والترف عندهم.

كانت سلاّمة جارية من مولدات المدينة، ابتاعها أبو الوفاء صغيرة لم تتجاوز الثامنة لتساعد زوجه أم الوفاء في القيام بشؤون بيتها، فترعرعت الجارية في كنف هذا البيت الصالح، وأحبّتها أمّ الوفاء فأحسنت تربيتها، وعلّمتها سُوَراً من القرآن، ولم تأل جهداً في البرّ بها والعطف عليها، ومما زادها حباً في الجارية وتعلّقاً بها أن أولادها لم يسْلَمُوا لها، وقد يئستْ من الولد حين كَبِرتْ وكَبِرَ زوجها فكانت تعتبر سلاّمة كابنتها، ولم تضن عليها بالتدليل كما تفعل الأم مع ابنتها، فنشأت سلاّمة لذلك متدللة تشعر أن لها سلطاناً على مولاتها، وأنها أشبه بابنة البيت منها بجاريته.

وكان أبو الوفاء يحنو عليها أيضاً ويرفق بها، وكانت تحترمه وتجلّه، إلا أنها لم تكن تتطلّقُ له تَطَلُّقَها لأم الوفاء، وذلك لما يكسو طلعته من المهابة والوقار ولقلّة عشرتها له، إذ كان يقضي جُلّ نهاره في المسجد، فكانت لا تراه إلا نادراً في وقت الظهيرة حين يرجع للغداء، أو في طرف الليل حين يأوي للمبيت.

وكانت سلاّمة من صغرها صبيحة الوجه، فصيحة اللسان، حلوة الحديث، متوقدة الذهن، لعوباً تميل إلى الدعابة والنكتة. وكانت جميلة الصوت في صوتها رخامة وحنان. ولو نشأت في بيت آخر غير هذا البيت الصالح بين أم الوفاء وأبي الوفاء لما بقيت – وقد جاوزت الرابعة عشرة من سنها – تخدم المنزل وترعى الغنم. كانت على حبها لمولاتها ومولاها تشعر في قرارة نفسها شعوراً مبهماً بأنها لم تخلق لهذا البيت، وأنها خلقت لشيء آخر لا تعرفه تمام المعرفة، ولكنها تحسّ به إحساساً عميقاً. كانت تميل إلى الغناء فلا تكاد تسمع لحناً حتى تحفظه، إلا أنها كانت قليلاً ما تجد السبيل إلى سماع الغناء في ذلك الحيّ الذي يسكن فيه أبو الوفاء أللهم إلا ما تسمعه من الألحان الدارجة تتغنى بها الجواري والغلمان في شوارع مكة، أو تلك التي تترنم بها الراعيات والرعاة في مواقع الكلأ خارجها حين كانت تخرج إليها بغنم مواليها.

ولكنّ سَريّا من سَرَاة[8] أهل مكة اشترى – لعام مضى ذلك الحين – حديقة كبيرة بجوار بيت أبي الوفاء في طرف من مكة، وابتنى بها داراً فخمة سامقة البناء، وعني بالحديقة حتى جعلها بهجة للناظرين، فتغير ذلك الحي الساكن المتواضع منذ نزل به هذا السريّ وشاعت فيه الحركة والبهجة، واكتسى ثوباً من العظمة والبذخ. وكان ابن سهيل قد ورث مالاً كثيراً عن أبيه ونشأ نشأة النعمة واليسار. وكان محباً للغناء واللهو مولعاً بمنادمة الشعراء والمغنين يستقدمهم من الآفاق ويغدق عليهم الأموال. فقلما اشتهر شاعر في ذلك العصر أو نبه صيت مغنٍ أو مغنية إلا كانت لابن سهيل صلة به.

وكان لحلول هذا السري المنخرق الكف المولع بالغناء والشعر في هذا الحي من أحياء مكة أثره الكبير في حياة سلاّمة. وكأنما كان ذلك تدبيراً مقصوداً من القضاء ليطلع في المستقبل من تلك الجارية المجهولة في بيت أبي الوفاء شمساً ساطعة في الغناء، تشرق أنوارها على أوساط النعمة في الحجاز وقصور الخلافة في الشام.

قدمت جميلة كبيرة مغنيات المدينة قدمتها تلك إلى مكة فنزلت عند ابن سهيل في هذه الدار الجديدة، ولقيت عنده ما يليق بمقامها وشهرتها من الحفاوة والإكرام، وأحيت بها ليالي للغناء سطع فيها فنها الرفيع وشهدها كثير من محبّي الغناء بمكة وذاع بعض ألحانها حتى تغنّى به الناس في الشوارع. وأحدث مقدمها ضجة كبيرة وأشفق الفقهاءُ ورجال الصلاح والتقوى من أن يفتتن بها الناس، ولاسيما الفتيان والفتيات، فسعوا في إخراجها من مكة، وكان من آثار ذلك ما قام به أبو الوفاء لدى ابن أبي عمار ليشكو أمرها إلى والي البلد.

كانت تلك الليالي القصار التي أحيتها جميلة في دار ابن سهيل نعمة كبيرة على سلاّمة إذ استطاعت – وهي مستلقية على فراشها – أن تستمتع بسماع ألحانها التي كانت تترجع في سكون الليل وكأنها نغمات الحور في قصور الجنان.

لم تنم سلاّمة ليلتها تلك إلا قليلاً بعد منتصف الليل. وكانت تحلم بتلك الأغاني حتى في نومها. ولم تكد مولاتها توقظها كعادتها مطلع الفجر حتى ترنمت ببعضها خشية أن تنسى ما حفظت منها، ولكن أم الوفاء لم تدع لها ذلك فوجدت سلاّمة في خروجها لرعي الغنم ذلك اليوم فرصة كبيرة لتتغنى في ذلك المرعى الفسيح كما تشاءُ، دونما رقيب.

كان هذا المرعى الفسيح قليل العشب إذ ذاك، فكان الرعاة يتنقلون لذلك من موضع إلى موضع، وظهرت سلاّمة في ناحية منه وهي تسوق غنمها وتغني:

لَيتَ هِنْداً أَنْجَزَتْنا مَا تَعِدْ
وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمّا تَجِدْ
واسْتَبَدَّت مَرّةً وَاحِدةً
إنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ

وكان يسير وراءَها على بعد منها غلام يرعى قطيعاً من الغنم سمع صوت سلاّمة فأخذ يتنصت له من حيث لا تراه. وقال لنفسه: «عجباً هذا صوت جميلة! ترى من هذه الراعية التي تجيد هذا الصوت هذه الإجادة حتى أكاد أحسبها جميلة نفسها؟».

واستمرت سلاّمة في غنائها:

وَلقدْ قالتْ لجَارات لَها
ذاتَ يوم وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدْ:
أَكَمَا يَنْعَتُنِي تَبْصُرْنَنِي
عَمْرَكنَّ اللـه أمْ لا يَقْتَصِدْ؟
فَتَضَاحَكْنَ وَقَدْ قُلْنَ لَها:
حَسَنٌ في كلّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّ
حَسَداً حُمّلْنَه مِنْ أَجْلِها
وَقَدِيْماً كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدْ

واقترب الغلام من موضع سلاّمة وهو يكاد يطير من الطرب، فلم ير قبلها راعية تتغنّى بمثل هذا الغناء الرفيع، وعلى هذا النحو من الإجادة، وقال في نفسه: «يا الله! إن في صوت هذه الجارية لغُنّة[9] عذبة لا توجد حتى في صوت جميلة».

وكانت سلاّمة سائرة على مهل، وقد استغرقت في غنائها فلم تنتبه للغلام الراعي الذي كان يسير وراءها على مقربة منها. وكانت كلما تذكرت بيتاً من القصيدة طربت له، وردّدته على مثال اللحن الذي سمعته عليه، حتى إذا غنت قوله:

«قُلْتُ يَا هِنْدُ مَتَى مِيْعَادُنا»

لم يتمالك حكيم أن غنّى مكملاً: «ضحكت هند وقالت بعد غد».

ريعت سلاّمة لهذا الصوت المفاجئ، والتفتت وراءها فرأت الغلام فعجبت كيف يجيد هذا اللحن راعٍ مثله، على أنها سرعان ما شعرت بأنس إليه، فما أن ابتسم لها حتى ابتسمت له كأنما قد تعارفا من قبل.

قال حكيم: «لله صوتك يا جارية.. هذا غناءُ جميلة، من أين أخذته؟».

فقالت: «وأنت كأني بك تعرف هذا اللحن».

قال لها: «أجل إني أعرف كثيراً من أصوات جميلة».

وما كاد الغلام يقول لها هذا حتى تهلّل وجهها سروراً كأنها عثرت على كنز ثمين وقالت: «أحقّ ما تقول؟ ألا تسمعني منها شيئاً».

فقال لها إنه سيفعل ذلك، ولكنه يريد أولاً أن يعرف مَن هي وما اسمها؟

فأخبرته أنها جارية الشيخ أبي الوفاء، وأن اسمها سلاّمة فقال لها إن اسمه حكيم، وأخذ يحدثها عن نفسه، وكان مما قال لها إن مواليه كانوا من أهل المدينة فانتقلوا إلى مكة بضعة

كتاب في جريدة

أشهر، وأنه نشأ بالعقيق، فكان يشهد مجالس الغناءِ فيه.

طربت سلاّمة لسماع حديث حكيم وقوي اعتقادها بصحة ما ادّعاه من معرفة كثير من أصوات جميلة، فزاد ميلها إليه، وإقبالها عليه، وقالت له: «أسمعني يا حكيم شيئاً من ألحان جميلة».

«إني لفاعل ولكن خبريني أولاً أترعين شويهاتك هنا كل يوم؟».

«نعم يا حكيم».

«وأنا أيضاً سأرعى غنمي هنا كلّ يوم».

وبرمت سلاّمة بهذه المطاولة من حكيم فقالت في شيء من الحدة: «بالله ما لنا ولهذا، أسمعني من أصوات جميلة أقول لك».

رأى حكيم برمها فآثر أن يرضيها وقال لها: «سأسمعك لحناً صنعته جميلة في شعر عبيد الله بن قيس الرقيات[10]، فهلمّي بنا نقعد على ذلك التل ونرسل غنمنا في أسفله». وأشار إلى تلّ صغير إلى يسارهما على أسفله قليل من العشب، فوافقته سلاّمة على ما اقترح ومشيا يهشان غنمهما، وأصعدا في التل حتى قعدا على منتصف السفح، وانتشر الغنم يرعى في أسفله واختلط بعضه ببعض.

بدأ حكيم يغمغم بالغناء وما زال صوته يرتفع شيئاً فشيئا حتى رنّ صداه في ذلك الخلاء:

«بِنَفْسِيْ مَنْ لو مرّ بردُ بَنَانه
على كَبِدِيْ كَانَتْ شَفَاءً أَنَامِلُهُ
وَمَنْ هَابَنِي في كلِّ شَيءٍ وَهَبْتُهُ
فَلاَ هُوَ مُعْطِيْنِي وَلا أَنَا سَائِلُهُ»[11]

فطربت سلاّمة طرباً شديداً وما منعها أن تقوم فترقص إلا اجتهادها في محاولة حفظ اللحن، وقالت: «أحسنت يا حكيم.. بربك إلا ما أعدته عليّ».

فأعاد عليها اللحن مرة بعد مرة حتى قالت له: «حسبك يا حكيم.. اسْمَعني سأعيد اللحن عليك فأردد عليّ الخطأ إن أخطأت».

قال لها: «افعلي ونعيم عين».

فغنّت سلاّمة: « بِنَفْسِيْ مَنْ لو مرّ بردُ بَنَانِه على كَبِدِيْ كَانَتْ شَفَاءً أَنَامِلُهُ ».

ثم وقفت عن الغناء وقالت: «تبا لي! لم أحسن اللحن».

فأعاد حكيم الشطر الثاني وطفق يكرره وهي تكرره معه حتى قال لها: «ها أنت ذي أجدته الآن». فكان جذلها عظيماً.

ونهضا فنزلا من السفح يتفقدان غنمهما ويعيدان ما ندّ منه وابتعد عن تلك البقعة، ثم عادا يستبقان إلى مكانهما في السفح فارتمت سلاّمة على مقعدها، وارتمى حكيم قريباً منها، وأرسلا تنهُداً طويلاً من تعب الجري تخالطه ضحكات بريئة كل البراءَة من جانب سلاّمة – وبسمات من قبل حكيم لا تخلو من معاني الغزل.

وما كاد نَفَسُ سلاّمة يهدأ حتى طفقت تعيد اللحن وقد ارتفعت عنها محاولة التقليد، وأرسلت نفسها على سجيتها، ومدّت من صوتها ما شاءَت أن تمد، ورجعت فيها ما طاب لها الترجيع، فطرب حكيم طرباً شديداً، ولم يصدق أنه يسمع اللحن الذي لقنها إياه منذ ساعة، ونظر إلى الشياه السائمة في أسفل التل فخيّل له أنها قد كفّت عن الرعي واشرأبت بأعناقها إلى مصدر ذلك اللحن العلوي البديع، فما لبث أن صاح في دهش: «ويل لك ما هذا؟!».

وانتبهت سلاّمة لاختلاف لحنها عن الأصل فقالت: «تبّا لي! عدت إلى خطئي».

قال لها: «كلا والله ما هذا بخطأ.. لقد زدت اللحن بهذا عذوبة ليس في الأصل.. والله لقد خلقت للغناءِ يا سلاّمة، وليكونن لك فيه شأن – وإنما أنت في حاجة إلى معلم تأخذين الغناء عنه».

نزلت هذه الكلمات كالطل البارد على قلب سلاّمة، لأنها عبرت تعبيراً واضحاً عما لديها من الموهبة الغنائية التي كانت تحس بها إحساساً مبهماً، فلم يبق لديها شك حينئذ في أنها ستصير مغنية عظيمة إذا وجدت من يأخذ بيدها في هذا السبيل، ونظرت إلى حكيم نظرة ملؤها الشكر وقالت: «لكن من لي بذاك المعلم يا حكيم؟».

أطرق حكيم لحظة ثم قال لها في شيء من التردد: «قلت لك إنني أعرف شيئاً من ألحان جميلة، وأزيدك أنني أعرف جملة من ألحان غيرها. فهل لك أن تأخذيها عني؟».

فلم تتردّد سلاّمة أن قالت: «أفعل يا حكيم، ولك المنّة والفضل».

رفع حكيم بصره إليها قائلاً: «ما جزائي عندك إن علّمتك إياها يا سلاّمة؟».

فضحكت سلاّمة وأجابته قائلة: «جزاؤك.. لا أدري. إني لا أملك شيئاً يا حكيم». فقال لها: «بل تملكين كل شيء يا سلاّمة».

وفطنت سلاّمة لبعض ما يريد وقالت متجاهلة: «والله رب هذا البيت لا أملك شيئاً».

قال لها: «لا تقولي هذا وعندك هذا الفم الأرجواني والثنايا اللؤلؤية!».

فاصطبغ خدها بحمرة الخجل وقالت في لهجة العاتب: «تبّاً لك.. أتريد».. فبادرها حكيم قائلاً:

«قبلة يا سلاّمة.. أو قبلتين».

قالت وقد قطّبت وجهها: «ويل لك.. بئس ما ربّتك أمّك يا حكيم!».

فأجابها مبتسماً: «أجل بئس ما ربّتْني أمي.. كانت – يرحمها الله – كثيراً ما تقبلني!».

فأغرقت سلاّمة في الضحك ثم كفّت عنه فجأة وقالت: «دعنا من هذا.. ألا تعلّمني يا حكيم؟».

قال لها: «وتمنحيني القبلة يا سلاّمة؟».

فسكتت.. ثم نظرت إليه ضاحكة وقالت: «أمنحك إياها».

فاقترب منها حكيم قائلاً: «هاتي فوالله إن المكان لخال».

فارتدّت سلاّمة قليلاً إلى الوراءِ قائلة: «لا.. ليس الآن.. حتى تعلّمَني».

قال حكيم وقد عاد إلى مكانه الأول: «حسناً سأعلّمك كل يوم لحناً أو لحنين على أن تعطيني قبلة على كل لحن».

فأجابته ضاحكة: «قبلت شرطك يا ماكر».

فابتسم حكيم ابتسامة الظافر وقال: «إذن فهاتي القبلة التي استحققتها عندك باللحن الذي علّمتك إياه الآن».

ولكن سلاّمة لم تعدم الرد المقنع إذ قالت: «إنك علّمتنيه قبل أن نبرم بيننا هذا الاتفاق، فليس لك أن تطالبني بشيء بعد».

قال لها وقد شعر بأنه المغلوب: «ويل لك ما أذكاك! غداً أستحق لديك قبلاً كثيرة!». فابتسمت وأجابته قائلة: «غداً يأتي الله بالفرج!».

الفصل الخامس

مرّت الأيام تترى على حكيم وسلاّمة وهما يلتقيان كل يوم في المرعى، فتأخذ عنه لحناً من الألحان التي كان يعرفها، حتى استنفدت ما عنده منها، وظلاّ بعد ذلك يتطارحان الأغاني السالفة ويعيدانها حتى إذا استقلت الشمس في كبد السماءِ، رجعت سلاّمة إلى البيت فقامت بما عليها من شؤونه.

وكانت في خلال ذلك كثيراً ما تتأخر عن موعد مجيئها إلى البيت فتعاتبها مولاتها، فتتنصّل من تَبعَتها بعذر من الأعذار تختلقه اختلاقاً؛ وكانت أم الوفاءِ تتسامح معها في ذلك لشدة حبها لها وتعلُّقها بها.

وزاد ولوع سلاّمة بالغناءِ حتى كانت لا تكاد تكفُّ عنه وهي تطبخ الطعام أو تكنس المنزل، وطالما نصحتها أم الوفاءِ بالكف عن ذلك، وشددت عليها فيه فلم تكن لتنتصح. وفاجأها أبو الوفاءِ غير مرة وهي تغني، فزجرها أشد الزجر، وتوعدها بالضرب، فكانت تكفّ عن الغناء يوماً أو يومين، ولكنها لا تلبث أن تعود إليه. وكان من جرّاء ذلك أنه قلما كان يمضي يوم لا يشتد فيه التّلاحي بين أبي الوفاءِ وأم الوفاءِ، إذ كان يتهمها بالهوادة والتسامح مع الجارية، وأنها لو قست عليها وأخذت بجانب الحزم في تأديبها لكفّت عن هذا الباطل.

والحق أن أم الوفاءِ كانت تدافع عنها في أول الأمر وتنتحل لها الأعذار، وتعِدُ زوجها بأن سلاّمة ستكفُّ عن باطلها، حتى ضاقت نفسها آخر الأمر حين رأت لا فائدة من نصح سلاّمة، فأعلمت زوجها بأنها عجزت عن تأديبها وأنها تترك له الحقّ في أن يتصرف في أمرها كما يشاءُ، فشاورها أبو الوفاء في أمر بيعها للتخلص منها، وكان ذلك شديداً على أم الوفاءِ لحبها لسلاّمة، ولكنها لم تجد عذراً تعترض به على هذا الرأي فرضيت به على كره.

رجعت سلاّمة من المرعى ذات يوم وبيدها عصا تسوق بها غنمها، ودخلت البيت فأفضَت إلى صحن متوسط يقع على يمينه مطبخ فيه أثافيٌ من الحجارة، وتُرَى معلقة على الحائط بعضُ القدور النحاسية والجفان الخشبية[12] وغيرها من الأواني. وفي الجانب الآخر من المطبخ تقع رحى المنزل التي تطحن فيها الحبوب، وعلى يسار الصحن مربض تأوي إليه الغنم له باب صغير.

ذكرت سلاّمة الغناءَ وهي تدخل الغنم في المربض فأنشأت تقول لنفسها: «ويلي أظنني نسيت لحن اليوم». ثم طفقت تزمزم بالغناءِ:

رُقيّ بِعَيْشِكُمْ لا تَهْجُرِيْنا
وَمنّينا المُنَى ثُمّ امْطُلِيْنا[13]

ونزلت إليها حينئذ أم الوفاء من الطابق الأعلى، فلما وقع بصرها عليها قالت لها: «أصبحت تتأخرين كل يوم يا سلاّمة».

فأجابتها سلاّمة قائلة: «ذلك لأني أذهب إلى المرعى البعيد».

قالت لها العجوز: «لِمَ لا تختارين المراعي القريبة؟».

«لأن المراعي القريبة لم يَعدْ فيها كلأٌ».

«هيا أدخلي الغنم وأسرعي بطبخ الغداءِ».

فسرّيَ عن سلاّمة إذ وقف عتاب العجوز عند هذا وقالت: «سمعاً يا مولاتي». وكأنما رقّ قلب العجوز لها إذ سمعت هذا الجواب الناعم فقالت: «هداك الله يا بنية. أوقدي النار وسآتيك بقطعة اللحم. إن أبا الوفاءِ اشترى لنا لحماً هذا اليوم».

«وليس عندنا ضيف يا مولاتي؟».

«لا ليس عندنا ضيف».

«إذن وفّري لي نصيبي من اللحم فإني لم أذقه في المرة السابقة».

فضحكت العجوز وقالت: «ولا أنا يا سلاّمة.. إن الضيف لم يترك لنا شيئاً». قالت ذلك وخرجت من باب الصحن لتصعد إلى الطابق الأعلى.

وخرجت سلاّمة من المربض حاملة بيدها مركناً[14] فملأته ماء من زير كبير في الصحن، ثم أعادته إلى المربض ليشرب منه الغنم وأوصدت الباب عليه. وذهبت نحو المطبخ فأخذت تشعل النار بقدح الزناد على رقيق سعف النخل اليابس وهي تترنم:

رُقيّ بِعَيْشِكُمْ لا تَهْجُرِيْنا
وَمنّينا الْمُنَى ثُمّ امْطُلِيْنا
عِدِيْنَا في غَدٍ مَا شِئْتَ إنّا
نُحِبُّ. وَإنْ مَطَلْتِ الْوَاعِدِيْنَا![15]

وكانت العجوز قد عادت في هذه اللحظة وبيدها قفّة اللحم فوقفت على باب الصحن تنصت للغناء معجبةً به، ولكنها كتمت إعجابها وظهرت في صورة الغاضبة ودخلت وهي تقول: «جميل والله يا سلاّمة! هذا غناء جديد أتيت به اليوم. بودّي والله أن أعرف من هذا الشقيُّ الذي يعلّمك كل يوم لحناً جديداً».

فبادرتها سلاّمة قائلةً: «لا أحد.. إنما سمعته في طريقي إلى المرعى فحفظته».

قالت العجوز مغضبة: «أما تنتهين عن مزامير الشيطان هذه – ألم يكفك ما عاقبك عليه مولاك؟». فأجابتها سلاّمة قائلة: «إنني لا أستطيع أن أقوم بعملي صامتة كالحائط!».

قالت العجوز: «أما علمتُك سوراً من القرآن فلم لا تقرئينها بدلاً من هذا الغناء الباطل؟.. اقرئي ما تيسّر منها حتى إذا سمعك مولاك سرّ منك، فو الله لو جاءَ مولاك على غِرّة وسمعك تغنين بعدُ ليضربنك ضرباً شديداً وليغضبنّ عليّ لأني لا أكفك عن هذا اللغو».

صمتت سلاّمة هنيهة وهي تضع القدر على النار وترمي فيها اللحم ثم قالت: «خيراً يا مولاتي سأقرأُ شيئاً من القرآن – سأقرأ والضحى».

فسرّت العجوز لقولها وقالت: «افعلي بارك الله فيك» وقعدت على دكة المطبخ تقشر ثوماً بيدها تساعد بذلك سلاّمة.

وشرعت سلاّمة تقرأ وهي ترمي الحطب على النار: «أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم». وسرعان ما استحال صوتها ترجيعاً وغناء وهي تتلو: «والضُّحَى واللَّيْلِ إذَا سَجَا • مَا وَدّعَكَ رَبُكَ وَمَا قَلَى • وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُوْلَى»..

فقاطعتها العجوز قائلة: «قد قلتُ لك مراراً أن لا تقرأي القرآن على هذه النغمة». فغضبت سلاّمة وقالت: «كيف أقرؤه إذاً؟ والله لقد حِرْتُ في أمركم لا أدري كيف أرضيكم!».

وكأن أم الوفاء شعرت أن موقفها من هذه الجارية لا يخلو من التعنت فقالت لها في رفق: «اقرئيه كما أقرأتُك إياه يا سلاّمة.. اقرئي هكذا: والضّحَى والليل إذَا سَجَا • مَا ودّعك ربُّكَ وما قلى • وللآخِرةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُوْلَى.. أفهمت؟» وتكلّفت سلاّمة الجواب قائلة: «نعم فهمت».

رأت أم الوفاءِ أن قد بَعلَتْ[16] بأمر الجارية وأن الخير أن تتركها وحدها تقرأ كما تشاءُ فحسبها أنها تقرأ القرآن، وكانت قد انتهت من قشْرِ الثوم، فوضعته في طَبَق أمام سلاّمة، واكتفت بأن أوصتها أن لا تكثر في المرقة من الملح وأن تنضج اللحم جَيّداً لمولاها الشيخ وانصرفت دون أن تقول لها شيئاً آخر.

وعادت سلاّمة فقرأت كما تحب مولاتها أن تقرأ: « «والضُّحَى واللَّيْلِ إذَا سَجَا • مَا وَدّعَكَ رَبُكَ وَمَا قَلَى • وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُوْلَى»..

وما أتمّت هذه الآيات الأولى من السورة حتى عادت من حيث لا تقصد إلى نغمتها الغنائية الأولى، وذلك حين أخذت تقرأ: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيْكَ ربُّك فَتَرْضَى • أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمَاً فَآوَى • وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى • وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى».

وطفقت تكرر هذه الآيات على نحو ما تصنع بالشعر وتذهب بها مذهبه، واتفق في خلال ذلك أن جاء أبو الوفاءِ من الخارج فسمع غنَاء ثم ما لبث أن تبيّن له أنه قرآن يتلى، فقال في نفسه: «سبحان الله ما هذا؟ أتلاوة أم غناء؟».

ووقف على عتبة باب الصحن يستمع إلى سلاّمة وهي تتلو: [فَأَمّا اليَتِيْمَ فَلا تَقْهَرْ • وأَمّا السّائِلَ فلا تَنْهَرْ • وأَمّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ].

فثار ثائره وضرب الأرض بعصاه، ودخل الصحن مغضباً قائلاً: «ويل لك يا فاعلة! علّمناك القرآن لتنتهي عن الغناءِ، فذهبت تتغنَّيْن بالقرآن.. أين أم الوفاء؟».

ارتاعت الجارية فجمدت في مكانها لا تنبس ببنت شفة.

واستمر الشيخ يصيح مزمجراً وينادي: «أمّ الوفاء.. يا أمّ الوفاء!».

وأجابت أم الوفاء من أعلى «نعم»، وهبطت بسرعة وأقبلت ترعد فرائصها وهي تقول: «ما بالك؟».

«ما بالي؟ ألم تسمعي هذه الخبيثة تقرأ القرآن كأنها تتغنّى بأبيات الشعر؟ هذه هي القراءة التي تعلّمتها منك؟».

فوجئت العجوز بهذه اللهجة القاسية من زوجها فاستشاظت غضباً وقالت: «أوَ أعرفُ أنا بالغناء فأعلّمها إياه؟ أما تتروّى يا رجُلُ في كلامك فتقول خيراً أو تصمت؟».

وشعر الشيخ الصالح أن قد غلبت عليه الحدّة، فألانَ من لهجته قائلاً: «وفيم لم تزجريها عن هذا العبث؟».

«وماذا عساي أن أصنع؟ لقد نهيتها عن هذا مراراً فلم تنته، إن شيطان الغناء يتلاعب برأسها وليس في وسعي أن أطرد الشيطان».

«لكن في استطاعي أن أطرد هذا الشيطان من رأسها أو أرمي هذا الرأس خارج البيت».

قال الشيخ هذا ونظر إلى وجه الجارية كأنه صفحة بيضاء، واضطربت سلاّمة من الخوف فتشاغلت بالطبخ، واقترب منها قائلاً: «يا بنية إنْ أبى لك شيطانك إلا أنْ تُغنّي فغنّي بكلام الغاوين من الشعراء.. ولكن حذار أن تصنعي ذلك بكلام رب العالمين، أتسمعين؟».

فأجابته سلاّمة بصوت خافض: «نعم يا مولاي». وانفجرت باكية.

وخرج أبو الوفاء فصعد، وبقيت أم الوفاء عند سلاّمة فلما رأتها تستخرط[17] في البكاء دمعت عيناها، وانحنت عليها تواسيها، فأنستْ إليها الجارية ومالت برأسها على حجرها، وما زالت العجوز بها تسلّيها وتمسح على رأسها وظهرها حتى سُرّي عنها فقامت إلى عملها.

ولبثت العجوز تلاطفها وتداعبها قائلة لها: «لا تبتئسي يا بنية، لا ضيف عندنا اليوم، فسأوفر لك نصيبك من اللحم». حتى ضحكت سلاّمة وما تزال في مآقيها آثار الدمع.

صعدت أم الوفاء إلى زوجها بعد أن اطمأن قلبها على جاريتها، فما أقبلت عليه حتى قال لها: «لقد أتعبتنا هذه الجارية، والله لأبيعنّها ولو بدرهم!».

فلم تجبه أم الوفاء بشيء فاستمر قائلاً: «لقد بعث إليّ ابن سهيل يرغب في شرائها ويعطي بها ثمناً كبيراً، ولولا معرفتي أنه إنما رغب في ابتياعها ليتخذها مغنية لبعتها له».

صمتت أم الوفاء هنيهة ثم قالت: «وماذا عليك منه؟ إن لم يكن لك بدٌ من بيعها فبعها له وليصنع بها ما يشاءُ».

فقال لها: «أخشى إن فعلتُ أن أكون معيناً على هذه المعصية».

قالت: «لا يحاسب الإنسان إلاّ على ما نوى. وماذا عساك تفعل غير هذا؟ إنها خُلقَت مغنية وستنشأ مغنية شئت أم أبيت».

الفصل السادس

مرّت ثلاثة أعوام على هذه الحوادث توفيت في أثنائها أم الوفاء من مرض طال بها على أثر فراقها لسلاّمة التي باعها زوجها لجاره السري ابن سهيل.

ووهنت قوة الشيخ أبي الوفاء وانتابته أمراض الشيخوخة العالية فكانت كثيراً ما تقعده عن شهود الجماعة في المسجد، إلا أنه كان صابراً محتسباً لله لا يشكو ولا يتألم، وكان يجد الأنس في رؤية أصدقائه الصلحاء الذين كانوا يختلفون إليه، ويعودونه إذا مرض، ويصحبونه إذا وجد في نفسه نشاطاً للخروج إلى المسجد. وكان من أشد هؤلاء اتصالاً به وأكثرهم تردداً عليه صاحباه الكهلان وصديقه الشاب عبد الرحمن بن أبي عمار.

لم يطرأ على عبد الرحمن من شيء جديد في خلال الأعوام الثلاثة، فكانت حياته تمرّ على وتيرة واحدة على نحو ما تقدم وصفه، فمن البيت إلى المسجد ومن المسجد إلى البيت، لا يعرف غيرهما إلا أن يذهب إلى بيت أبي الوفاء يعوده أو يزوره، أو أن يخرج إلى ضيعته في ضاحية مكة يتعهدها.

أما سلاّمة فقد تبدلت حياتها، وتغيرت عما تركناها عليه في الفصل السابق منذ اشتراها ابن سهيل، فوجدت عنده البيئة الصالحة لنمو مواهبها وأداءِ وظيفتها في الحياة، فقد عنى بتعليمها عناية كبيرة، ووكل بها جماعة من الشعراء والمغنّين والعازفين، فتعلمت الكتابة ولقنت فنون الشعر، وحذقت العزف على العود وغيره من آلات الطرب.. وحظيت عند مولاها السري الطروب وشغف بها شغفاً عظيماً حتى كان لا يصبر عنها ساعة. وكان يعقد لها مجالس الغناءِ في داره فتشهدها الطبقات المتخلفة من الشعراء والمغنّين ومحبّي الشعر والغناءِ.

خرج عبد الرحمن بن أبي عمار ذات يوم إلى المسجد لشهود صلاة الصبح كعادته، فلما انتهى من الصلاة وأخذ في الدعاء تذكّر الحلم الذي رآه في منامه الليلة البارحة فامتلأ قلبه رعباً، وقال: «اللهم إني أعوذ بك أن تضلني بعد الهدى». وتلا المعوذتين ثم قال: «اللهم اجعلها أضغاث أحلام».

والتمس أبا الوفاء في الموضع الذي يصلّي فيه فلم يجده، ووجد صاحبيه الكهلين فحياهما ثم سألهما عنه فعلم منهما أنه مريض، وأنه لم يشهد الجماعة منذ يومين، فاعتزم عبد الرحمن

أن يعوده ذلك اليوم.

فلما عاده وجده مضطجعاً على فراش على الأرض وعنده عبد أسود يقوم بخدمته فسلّم عليه فردّ عليه السلام ورحّب به، وأراد أن يجلس له فلم يدَعْهُ عبد الرحمن يفعل ذلك، وقعد على الحصير إلى جانبه وهو يقول: «لا بأس عليك أبا الوفاء، شفاك اللـه وعافاك!».

فأجابه الشيخ بصوت منخفض قائلاً: «لا أراك اللـه بأساً يا عبد الرحمن، إني لا آسف عن شيء يا بني إلا على شهود الجماعة».

«كيف تجدك اليوم يا عم؟».

«أجدني بارئاً بنعمة اللـه يا بني.. إن جسم المرءِ ليعتل فيشفى، وإنما الطامة الكبرى أن تمرض الروح».

وكان لكلمة الشيخ هذه وقع خاص عند أبي عمار فاضطرب وقال: «صدقت يا عم، لقد ذكرتني كلمتك هذه حلماً رأيته البارحة ملأَ قلبي رعباً، وشغلني همّه طوال وقتي».

«ماذا رأيت يا بني؟».

«رأيت كأني كنت في الجنة إذا بصوت جميل آتٍ من خارج باب الجنة، فانطلقت لأستمع إليه وخرجت إلى الأعراف، حتى إذا اقتربت من الجانب الآخر ممّا يلي النار بَصُرت على شفيرها بامرأة كأجمل ما رأيت من النساء، محلولة الشعر، عارية إلا ما يستر وسطها، وفي يدها اليسرى مزمار، فلما رأتني فزعت إلي كأنما تعرفني من قبل، وطوقتني بيدها اليمنى وتشبثت بعنقي وهي تصيح: «عبد الرحمن أنقذني! عبد الرحمن أغثني!». وسُدًى ما حاولت الإفلات من قبضتها فأخذت أجذبها إلى جهة الجنة وهي تنجذب إلى جهة النار، حتى وقفنا معاً على شفير الهاوية، فارتعت لهول منظرها، فانتبهت على صوت المؤذن بصلاة الفجر!».

ولم يكد عبد الرحمن يتم حديثه حتى هبّ أبو الوفاء كأن قوة أعانته فاستوى جالساً، ولبث هنيهة صامتاً كأنه يدير في ذهنه هذه الرؤيا الغريبة ثم قال: «ما أرى هذا الحلم إلا من الشيطان فاستعذ باللـه عنه ولا تقصصه على أحد، فقد بلغنا عن النبي صلّى اللـه عليه وسلّم أنه قال:

«من رأى رؤية لا تسرّهُ فليتعوذ باللـه ولا يقصصها على أحد فإنها لا تضره».

فقال عبد الرحمن: «أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم».

وعاد الشيخ للحديث فقال: «لا تَخَفْ يا بني فلن يجد الشيطان إليك سبيلاً، إنك لشاب مبارك مجتهد في طاعة اللـه ما عرف الناس فيك إلا الخير. إنه الشيطان يا بُنَيّ تمثّلَ لك في صورة امرأة زمّارة ليفتنك عن دينك».

«ويل لي! صبوت إلى غنائه وخرجتُ من الجنة.. وأيْمُ اللـه لقد هلكت!». قال هذا عبد الرحمن وانتظر ماذا عسى أن يقول أبو الوفاءِ في تأويله هذا.

وفكر الشيخ قليلاً ثم قال: «لا تخُش سُوءاً يا قَس.. ألم تقل لي إنك كنت في الجنة؟ وإنه يا بني من دخل الجنة لا يخرج منها».

«جزاك اللـه صالحة يا أبا الوفاء، لقد هدّأت روعي وبشّرتني بشّرك اللـه بالخير».

فحرّك أبو الوفاء رأسه وقال وقد جلّت وجهه غاشية من الهم: «إنك يا بني فزعت من رؤيا النار، فما قولك في أناس يشهدون أن لا إله إلا اللـه وأن محمداً رسول اللـه يغرقون فيها إلى آذانهم وهم مستبشرون؟ هذا جارنا ابن سهيل – غفر اللـه له وتاب عليه – يقضي ليله ونهاره في مزامير الشيطان، ومسامرة أعوانه من الشعراء الغاوين، والقيان والمغنين، ينفق عليهم من ألوان الطعام والشراب ما لو أنفق بعضه على فقراء مكة وأراملها وأيتامها لدخل الجنة من أي أبوابها شاءَ».

وطفقت الدموع تتحادر من عينيه وهو يقول: «غفرانك يا إلهي غفرانك!».

فتعجب عبد الرحمن من بكاء الشيخ فسأله: «ما يبكيك يا أبا الوفاء!!».

قال أبو الوفاء وهو يمسح الدمع من عينيه: «أخشى أن أكون أعنته على معصية اللـه يا بني».

فازداد عجب عبد الرحمن وقال له: «معاذ اللـه.. كيف ذلك يا أبا الوفاء؟».

فقصّ عليه الشيخ حديث جاريته سلاّمة، فقال له عبد الرحمن:

«خفِّضْ عليك يا عم.. إنك غير مسؤول عن عمله».

«لكني كنت أعلم أنه سيفعل ذلك».

«يغفر اللـه لك يا أبا الوفاء، إن اللـه لأرحم من أن يؤاخذك على جريرة سواك».

«ذلك الظن باللـه يا بني وهو خير الغافرين».

واستأذن عبد الرحمن في الانصراف فودّعه أبو الوفاء شاكراً، وأوصاه أن لا يغب[18] زيارته لأنه يأنس بقربه، فوعده عبد الرحمن بذلك وانصرف.

خرج عبد الرحمن من بيت أبي الوفاء ومشى متمهّلاً في الطريق يفكر فيما قاله للشيخ، وما قاله الشيخ له، وذكر كلمته عن جاره ابن سهيل، فصوّب نظره إلى حيث يقيم هذا الجار الذي شقى صاحبه بقربه وجواره، فرأى داراً فخمة على ثلاث طبقات، يحيط بها بستانٌ واسعٌ عليه سورٌ قصيرٌ تظهر منه رؤوس أشجار النخيل والسِّدر، ورأى في الجانب الأقصى من البستان المشربة[19] التي يستقبل فيها ابن سهيل ضيوفه،

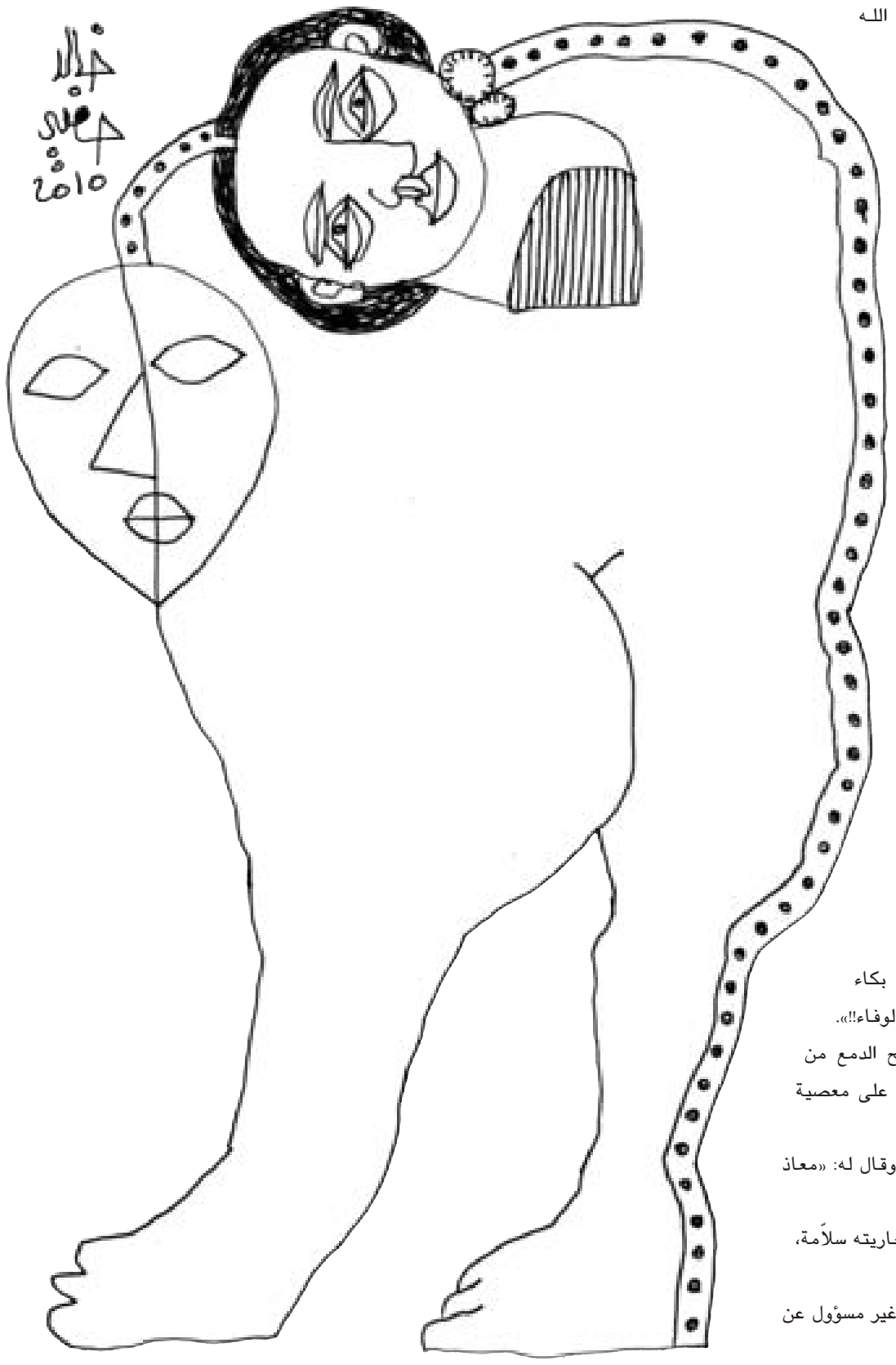

ندماءَه من المغنين والشعراء.

مشى عبد الرحمن بجانب السور فسمع صوتاً كالغناءِ آتياً من قبل المشربة الواقعة في أقصى السور، وكلما اقترب منها ومن باب السور المفضي عليها زاد الصوت ارتفاعاً ووضوحاً، وإذا به يغني:

إذا وَجَدتُ أُوارَ الحُبّ في كَبِدي
ذَهَبْتُ نَحْوَ سقاءِ الْماءِ أَبتَرِدُ!
هَبْني بَرَدْتُ ببَرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرَهُ
فَمَن لِنارٍ عَلى الأَحْشاءِ تَتَّقِدُ؟[٢٠]

وإذا برعدة تسري في مفاصل عبد الرحمن، وإذا به يثّاقل في مشيته وهو يقول: «عجباً ما أشبه هذا الصوت بصوت المرأة التي رأيتها في الحلُم.. للـه ما أعذبه.. إن له لحلاوة في قلبي».

وانتبه فجأة إلى موقفه فتكلّف الإسراع في المشي وهو يقول: «أعوذ باللـه من فتنة الشيطان». حتى إذا حاذى باب السور برز ابن سهيل من الباب، وكان قام ليتفقد ضيوفه القادمين إليه ذلك اليوم من المغنين والشعراء، فأبصر عبد الرحمن يحدر في مشيه، فعرفه فاستوقفه قائلاً: «مهلاً يا بن أبي عمار، ألا تُسلم علينا؟».

فالتفت إليه عبد الرحمن، وكان يعرف ابن سهيل من قبل وكثيراً ما رآه في المسجد، فقال: «السلام عليك يا بن سهيل».

فأجابه ابن سهيل ووجهه يتهلل من البشر: «وعليك السلام ورحمة اللـه، أهلاً بك يا بن أبي عمار». وأقبل إليه يصافحه قائلاً: «كيف أنت يا قسّ؟».

«بنعمة اللـه يا بن سهيل».

«من أين يا بن أبي عمار؟».

«من عند أبي الوفاء أعوده».

فظهر التأثر على وجه ابن سهيل وغاضت ابتسامته قليلاً وقال: «عجل اللـه بالشفاءِ لأبي الوفاء، لقد بلغني أنه اعتلّ، ولولا خشيتي أن يضيق بمقدمي لعدتهُ، فو اللـه إني لأحبّ هذا الرجل الصالح قدر ما يبغضني هو».

ففرح عبد الرحمن في سرّه بهذه الصدفة التي لم يتوقعها، ورأى أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ليكلم ابن سهيل في صالح أبي الوفاء، وينصحه بالكفّ عن إزعاجه بأصوات الغناءِ ورنات العيدان، فقال له: «أما إنه لعلى حق في بغضك. لقد شكا إليّ أنك تزعجه بغنائك وقصفك وتشغله عن تلاوته وصلاته».

فقال ابن سهيل بصوت يندى بالعطف: «واللـه يا بن أبي عمار ليشقُّ علي أن يتأذى مني هذا الجار الصالح، ولقد واللـه بنيت هذه المشربة الجديدة التي تراها في هذا الجانب القصي من الحديقة لأبتعد بها عن داره فلا تصل إليه أصوات الغناء».

«لقد أحسنت بهذا يا بن سهيل صنعاً، وحبذا لو تحسن إلى نفسك فتقلع عن اللـهو والغناءِ جملة فتستريح وتريح».

فتبسم ابن سهيل وقال: «يا ليت ذلك في استطاعي يا بن ابي عمار، ولكني امرؤ ابتلى بهذا اللـهو فما يستطيع أن يعيش بدونه. آه يا قس أحسبني قد أستغني عن الغذاء ولا أستغني عن الغناءِ».

فحرك عبد الرحمن رأسه قائلاً: «ما أشدّ جنونكم أرباب اللـهو.. أسأل اللـه لك الهداية والتوبة يا بن سهيل».

فقال ابن سهيل بصوت خاشع: «اللـهم آمين».

وتهيّأ عبد الرحمن للمشي فقال له ابن سهيل: «إلى أين يا بن أبي عمار؟».

قال عبد الرحمن: «إلى المسجد».

قال ابن سهيل: «ليس الآن يا بن أبي عمار.. لم يحنْ وقتُ الظهر بَعْدُ.. هلمّ معي إلى المنزل فليس من الحق أن تمرّ بباب منزلي ولا تعرّج عليه.. أشهَدْ مجلسنا اليوم فسيجتمع عندي طائفة من فحول الشعراء يتساجلون، وستسمع إن شئت من جاريتي سلاّمة غناءً لم تسمعه في حياتك».

فقال عبد الرحمن وهو يهمُّ بالمشي: «ولن أسمعه إن شاءَ اللـه».

فجذب ابن سهيل رداءَ صاحبه برفق وقال: «كلا يا قس لا تبْرحْ مكانك حتى تدخل منزلي».

فَحرج عبد الرحمن وقال بصوت فيه حدة: «أتدعوني إلى اللـهو والغناء يا بن سهيل؟».

«لا يا بن أبي عمار. لك عليّ أن لا يرتفع صوت بالغناءِ ما بقيت عندي في المنزل».

«شكراً لك يا بن سهيل، إنك تعلم أني أكره هذه الجماعة من مُجّان الشعراءِ والمغنّين، وأضيق برؤية وجوههم التي عليها غبرة الفسوق والعصيان».

وسُمِعَتْ جلبة من خلف السور فعلم ابن سهيل أن ضيوفه قد قدموا، فقال لعبد الرحمن: «ها قد أقبل القوم فهلمّ يا بن أبي عمار».

فقال عبد الرحمن: «دعني أنصرف يا بن سهيل».

ولم يكد عبد الرحمن يتمّ كلمته حتى ظهر أحدهم، فقال ابن سهيل وهو يبتسم: «هذا عمر بن أبي ربيعة شاعر قريش».

فظهرت الكراهية في وجه عبد الرحمن وقال: «تبّاً له من فاجر».

وما لبث عمر أن دنا منهما فقال: «السلام عليكم».

فأجابه ابن سهيل باشّا: «وعليك السلام يا عمر.. أين بقية القوم؟».

فنظر عمر خلفه قائلاً: «هم أولاء آتون على أثري».. ثم ابتسم ابتسامة ماجنة وقال: «وعَجِلتُ إليك لتكون لي النظرة الأولى في وجه سلاّمة!».

والتفت إلى الشاب الواقف أمام ابن سهيل فضحك وقال: «هذا عبد الرحمن بن أبي عمار – ما جاءَ بك هنا؟ أتريد أن تشكونا إلى الوالي كما فعلت من قبل؟».

فضاق عبد الرحمن صدراً وقال: «ما تزال يا عمر سادراً في إثمك وفجورك وتشبيبك بالمحصنات حتى يصيبك اللـه بقارعة من عنده».

لم يكن من عمر إلا أن رفع رأسه مقهقهاً، ثم تنهد ونظر إلى عبد الرحمن قائلاً: «آه يا قس، وهل أنا إلا في قوارع[٢١] العذاب؟ غفر اللـه لبنات حواء لقد تركن قلبي أشلاءً؟».

وظهر عند ذلك الأحوص والعَرْجيُّ الشاعران، وخلفهما الغريض ومعبد المغنيان، فقال عمر: «ها هم القوم قد أقبلوا يا بن سهيل!».

وطفق الأحوص والعرجي يتغامزان، يقول أحدهما لصاحبه: «أنظر هذا عبد الرحمن القس، هلُمّ نتندر عليه ونغضبه». فضحك الآخر وقال: «هلم!».

وأقبل الأربعة فسلّموا، فردّ عليهم السلام. وصاح العرجي قائلاً: «هيا بنا إلى الشراب يا بن سهيل.. ما أنتم والوقوف هنا؟».

والتفت إلى عبد الرحمن كأنه لم يعلم بوجوده هناك من قبل فقال: «أهلاً يا بن أبي عمار. ما هذا؟ هل أصبحت اليوم من مذهبنا؟».

فنظر ابن سهيل إليه نظرة العاتب فأمسك.

وقال عبد الرحمن: «ويل لك يا عرجي، أما تكف عن مجونك؟ لبئس ما خَلَفْتَ جدّك عثمان بن عفان».

فقال العرجي بلهجة يخالطها الجد: «وماذا تنتظر مني أن أفعل يا عبد الرحمن؟ إن بني عمّنا استأثروا بالأمر من دوننا ونحن أولى به، وأقصونا عن الولايات فلا أقلّ لمثلي من أن يلهو كما يلهو الشباب». ثم طفق يترنم قائلاً:

أَضَاعُوني وَأَيَّ فَتَىً أَضَاعُوا
لِيَوْمٍ كَرِيْهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرٍ

فهز عمر رأسه قائلاً: «مطالبٌ بالخلافة جديد ورب الكعبة!».

وتأفّف الأحوص فصاح: «أنحن في يوم شراب أم في يوم مواعظ؟ ألهذا دعوتنا يا بن سهيل؟».

فالتفت إليه عبد الرحمن قائلاً: «ويل لك يا أحوص.. ما كان أجدر بك أن تتبع سنّة سلفك من صالحي الأنصار».

فتنهّد الأحوص وقال: «تذكرون الأنصار وقد ظلمتموهم مرتين. إن لي إذا شرب العرجي كأساً واحدة أن أشرب كأسين أغرق فيها آلامي».

فقاطعه عمر قائلاً: «وأنت أيضاً يا لُكَع! ويلها مهزولةً يسومها أمثال هؤلاء!».

واستمر الأحوص في حديثه قائلاً: «رحم اللـه سعد بن عبادة.. قتلته قريش وقالت قتلته الجن!!». ثم أخذ يقهقه وهو يقول: «دعني يا بن أبي عمار أشرب فآخذ بثأري من الجنّ!».

فنظر إليه عبد الرحمن ساخطاً وقال: «أمثلك يثأر للأنصار يا هذا؟ ألست الذي هجوتهم في شعرك؟».

قال الأحوص: «بلى.. هجوتهم لأنهم ذلّوا

لقريش. وما كان لهم أن يذلّوا».

فقال عمر: «إذا مات الأكفاءُ كثر الأدعياءُ».

وكأنما عزّ على الغريض أن لا يشترك في الحديث وخشي أن يسبقه معبد إليه، فقال يخاطب عبد الرحمن: «إذا كنت لا تحب الغناءَ يا قس، فانصرف عنّا ودعنا وشأننا».

فثار ثائر عبد الرحمن وقال له: «قطع الله لسانك! هل جئت أستضيفك يا مخنّث فتأمرني بالانصراف؟».

فأجابه الغريض قائلاً: «اذهَبْ ذهب الله بك!».

فنظر إليه ابن سهيل عاتباً وقال: «مَهْ يا غريض.. إن ابن أبي عمار لا يريد بنا إلا الخير».

فقال عبد الرحمن: «سامحك الله يا بن سهيل.. أخّرتني عن المسجد وشغلتني بجماعتك هؤلاء». وانصرف مسرعاً ولم يزد.

ووقف القوم صامتين ينظرون إلى الشاب وهو يسرع الخُطى مولياً، حتى فضّ مَعْبد ذلك الصمت بقوله:

«سباك الله! لقد أغضبتم الرجل. إنه والله لخير منا».

فقال عمر: «أجلْ والله إنه لخير منا.. هيّا بنا يا بن سهيل».

وصمت ابن سهيل لحظة ثم قال: «هيا بنا» وتقدم إلى باب السور وتبعه القوم فدخل ودخلوا معه.

الفصل السابع

تردّد اسم عبد الرحمن بن أبي عمار. وتكرر الحديث عنه في مجلس ابن سهيل بعدما كان منه ذلك اليوم خارج السور، وما جرى بينه وبين ندمائه من الحوار. وكأنما شاقَ خبرُه سلاّمة بوجه خاص فكانت تُصغِي لما يقال عنه، وتتّبعه باهتمام. ولعل لصلته بمولاها السابق وصداقته له سبباً في اهتمامها بأمره، إذ كان ذلك يثير في نفسها ألواناً من ذكرى طفولتها التي قضتها في ذلك البيت الصالح بين حدب مولاتها العجوز وعطفها عليها، وبين عناية مولاها الشيخ بأن يجعل منها جارية صالحة على رغم ما كان يضطرب في صدرها من نزعات الفتون ووساوس الهوى.

ولم تنس ما لقيت في ذلك البيت من العنت الشديد من جرّاء حبها للغناءِ وميلها إليه، حتى نقلها الله منه إلى كنف مولاها الجديد – هذا الكنف الذي تسرح فيه وتمرح متمتعة بحب مولاها السّرِي الذي حقّق لها ما كانت تصبو إليه من النبوغ في الغناءِ حتى علا كعبها فيه.

ولكنها مع ذلك كانت لا تذكر ذلك العهد السالف إلا بالخير، فكانت تترحّم على أم الوفاء التي قضت نحبها على أثر فراقها لها، وتشفق على أبي الوفاء وقد أصبح وحيداً وانتابته أمراض الشيخوخة، وتحنّ إلى أيامها الجميلة في المرْعى حيث كانت تلقى حكيماً فيغنّي لها الألحان فتأخذها عنه. ولا تزال تذكر تلك الألحان وتميل إلى التغنّي بها، وتجد لذلك لذة خاصة على بساطتها وقلّتها بالنسبة لما حذقته بعد ذلك من فنون الغناء وضروب التوقيع.

ولم تعرف من أمر حكيم بعد ذلك شيئاً كأنما كان طيفاً عابراً أراها فردوس الغناء، ووضع في يدها القبس ثم اختفى!

وكان ابن سهيل لا يفتأ يتحدث عن ابن أبي عمار، ويودّ لو يراه مرة أخرى فيدعوه إلى داره، ويتحدث إليه ويعتذر له عما بدر منه ومن أصحابه في حقه؛ فكان يترقب مروره تحت داره في طريقه إلى بيت أبي الوفاء، وأوصى سلاّمة أن تترقبه أيضاً حتى إذا لمحته أنبأته به.

وأقبل عبد الرحمن في صباح اليوم الرابع ليعود صاحبه الشيخ، فما لمح دار ابن سهيل مِنْ بعد حتى عادت إليه ذكرياتُ ذلك اليوم الذي لقي فيه وجوه أولئك الخلعاء الماجنين، فخشي أن يلقاهم مرة أخرى فأراد أن يسلك طريقاً آخر إلى بيت أبي الوفاء لا يمر فيه بباب المشربة الذي لقيهم دونه. وتذكر ذلك الصوت الجميل الذي سمعه ذلك اليوم فبقي عالقاً بقلبه، فشعر برغبة خفية في أن يسمعه مرة أخرى، ولكنه قمعها بشدة ودار حول السور من الجانب الآخر ليتجنب المرور بباب المشربة، ولكن دار ابن سهيل لم تختف من عينيه، فقد كانت لعلوّها تشرف على الجوانب كلها، ولم يكد يقترب منها حتى سمع الصوت عينه فعرفه وارتاحت نفسه إليه، ولم يكن الصوت في هذه المرة عالياً كما كان في المرة السابقة، إلا أنه كان من الوضوح بحيث تبين له أن يقول:

تُنيلُ نَزْراً قليلاً وَهْيَ مُشْفِقَةٌ
كَمَا يَخَافُ مَسِيْسَ الْحيّةِ الفَرِقُ
لا أعتقَ اللـهَ رِقّيْ مِنْ صَبَابتكم
ما ضرّنِي أنّنِي صبٌ بِكُمْ قلِقُ[٢٢]

فلم يسع عبد الرحمن إلا أن يتمهل في خطوه وهو يقول: «سبحان الله ما أعجب!».

ولم يعلم عبد الرحمن أن ابن سهيل كان قد لحظه من الدار على بعد، ورآه لما دار حول السور ليسلك الطريق الآخر، فأوعز إلى سلاّمة أن تغنّي هذه الأبيات حين اقترب عبد الرحمن من الدار، وأخذ هو يترصده من شباك الغرفة ليرى ما يكون من أمره عندما يسمع الغناءَ، فاشتدّ عجبه إذ رأى الشاب الناسك يتمهّلُ في خطوه ويتصنت للغناءِ، فالتفت إلى سلاّمة ضاحكاً وقال لها: «استمري في غنائك.. هذا القس يستمع إليك.. سأخرج له..». قال ذلك ونزل مسرعاً، وقامت سلاّمة حتى دنت من الشباك تنظر منه والعود في يدها وهي تغني:

يَتُوقُ قَلْبِي إلَيْكُمْ كيْ يلاقِيَكمْ
كَمَا يَتُوْقُ إلَى مَنْجَاتِه الْغَرِقُ!

فأخذ عبد الرحمن بالصوت ووقف من حيث لا يشعر في محاذاة الدار، فخرج إليه ابن سهيل ففاجأه على حاله هذا، فاضطرب عبد الرحمن وتظاهر بالسير، ولكن ابن سهيل انطلق إليه قائلاً: «رويداً يا بن أبي عمار، لقد رأيتك تستمع إلى غناء سلاّمة، فهل لك أن تدخل فتسمع؟».

فأجابه عبد الرحمن وهو يحاول إخفاءَ الاضطراب البادي عليه قائلاً: «كلا. إني ذاهبٌ لأعود أبا الوفاء».

فأخذ ابن سهيل بيده قائلاً: «أدخل، أدخل أولاً فاسمع ثم اذهب إلى أبي الوفاء.. هيّا بنا».

فجذب عبد الرحمن يده وهو يقول: «لا.. أعفني يا بن سهيل».

فقال له ابن سهيل: «لا أعفيك.. والله لتدخلن فتسمع».

«لا يا بن سهيل.. معاذ الله أن أجلس إلى مغنية».

«سأقعدها في موضع تسمع غناءَها ولا تراها».

«ولا هذا يا بن سهيل.. خلِّني يا بن سهيل لسبيلي».

فأصرّ ابن سهيل على دخول عبد الرحمن، وقال له بلهجة الحازم: «لا والله لتدخلنّ فستمع، أوْ لأدعونها فتخرج إليك».

ورأى عبد الرحمن أن لا فائدة من المقاومة، وخشي إن هو أبى الدخول أنْ يدعوها ابن سهيل فتخرج إليه، فطفق يتلفّتُ يمنةً ويسرةً كأنه يخشى أن يراه أحد وقال: «لا.. لا تفعل – سأدخل».

دخل الرجلان من باب السور المفضي إلى الدار، ومرّا بفنائها الواسع واخترقا الحديقة يمشيان بين النخل والسِّدر وأشجار الليمون، ويجوزان الجداول الصغيرة يجري فيها الماءُ من جابية كبيرة ينزح إليها من البئر، حتى إذا امتلأت أرسل صمامها فتدفّق الماءُ في الجداول إلى حيث يروي الزرع والبقل أو يسقي النخل.

وكانت سلاّمة تنظر من شباك الدار إلى الضيف الغالي أو الصيد الكريم حين مرّ بفناء الدار، وتحدّق في وجهه تتأمله تأمُّلاً دقيقاً وتدير طرفها فيه من رأسه إلى قدمه، فإذا شابٌّ في نحو الخامسة والعشرين، معتدل القامة عريض الأكتاف، خفيف اللحم دقيق الأطراف، أبيض الوجه في سمرة تشوبه، وتزينه لحيةٌ سوداءُ ليست بالكثيفة ولا بالخفيفة، يتصل بها عارضان عليهما شعرات غير منتظمة، أحفى شاربه فلا يبدو منه إلا خضرة أصول الشعر، وتظلّل أنفه الأقنى[٢٣] أهدابٌ طويلة سوداءُ مرسلة من عينين شهلاوين عليهما آثار السهر، وفوقهما حاجبان كثيفان لو زحفا قليلاً لاقترنا، وتلوح على جبهته الواسعة سجدة خفيفة في مثل لون الرصاص. لا يشكّ الناظر إليها أنها جَبْهةُ عابد! وادارت سلامة في ذهنها –

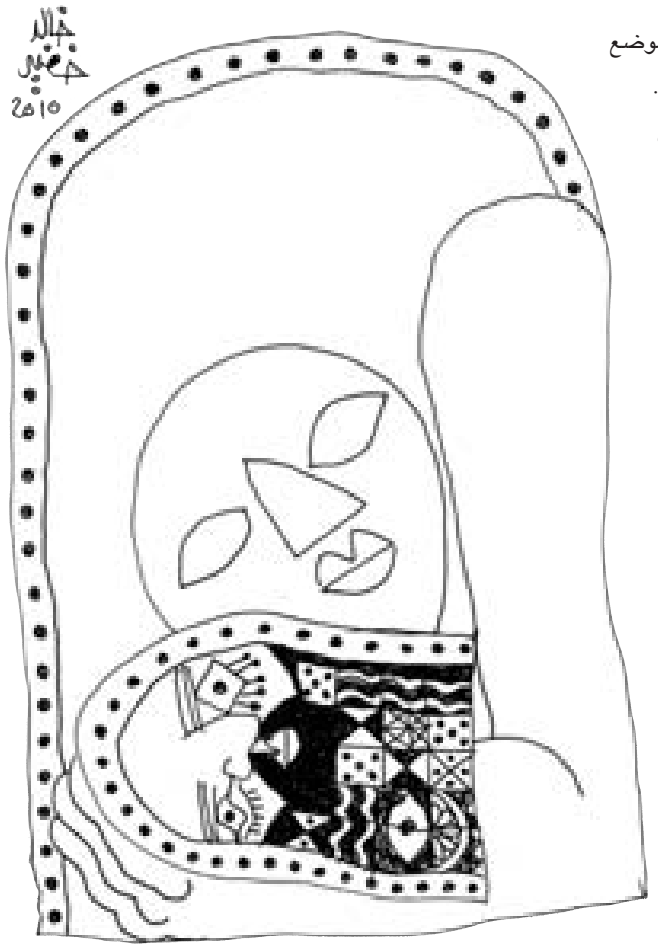

وهي تنظر إليه في تلك اللحظة العابرة – ما كانت تسمع عنه من تقواه ونسكه، فأحسّت بعطف غريب عليه، وشعرت برثاء له كأنها تقول في نفسها: «مسكين هذا الرجل! لا ينبغي لمثله أن يدخل إلى هنا».

وتوجه ابن سهيل بعبد الرحمن إلى جهة المشربة، فإذا بناء مربّع مرتفع عن الأرض قليلاً، لها أربعة أبواب من الجهات الأربع تكاد لسعتها تشغل النصف من مساحة جدرانها، وهي مفروشة بالطنافس[٢٤] الثمينة، وعلى جوانبها زرابى[٢٥] مبطّنة بالمخمل الوثير الزاهي الألوان.

وتردد عبد الرحمن في الدخول لما رأى من مظاهر الترف التي لم يرها في حياته، ولا تطمئن إليها نفسه الزاهدة في زبرج الحياة ونعيم الدنيا الفانية، ولكن صاحب الدار قضى على تردُّده إذ أخذ بيده ودخل به المشربة في ترحيب بالغ، وبشر طافح، فأجلسه في صدرها المُخمل الناعم بين الوسائد العالية التي تفصل المقاعد بعضها عن بعض.

وغاب ابن سهيل لحظة شعر في خلالها عبد الرحمن بضيق شديد كأنه السمكة تؤخذ من الماء لتتقلب على الأرض، ولاسيما حين نظر في الجدران فرأى أنواع العيدان والمزاهر معلقة على جوانبها.

وعاد صاحب الدار فدخل معه غلام أسود يحمل خواناً[٢٦] صغيراً فأشار له مولاه فوضعه أمام عبد الرحمن، وأقبلت جارية كهلة بأطباق مملوءَة بالشواءِ والحلوى والعنب والعسل فصفتها على الخوان، وقعد ابن سهيل بجانب عبد الرحمن فطفق يلاطفه ويعزم عليه في الأكل، فأصاب عبد الرحمن الشواء والحلوى ولعق قليلاً من العسل وقال: «الحمد لله الذي أطعمنا هذا». وقدّم له ابن سهيل عنقوداً من العنب فأخذ عبد الرحمن يأكل منه حبّة حبّة وقد زالت عنه الوحشة التي كان يجدها، وأنس إلى صاحبه المهذّب الظريف.

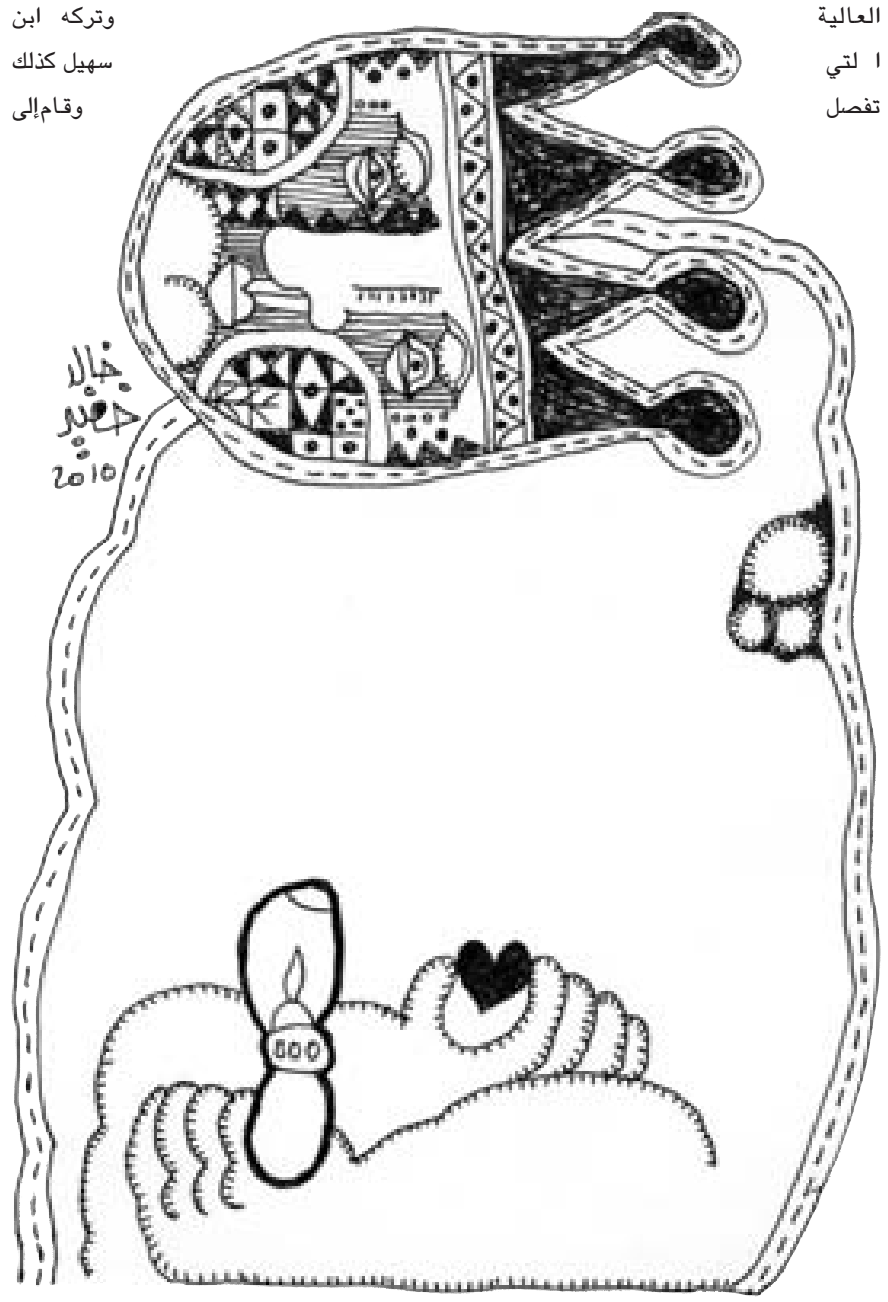

وتركه ابن سهيل كذلك وقام إلى جانب الحديقة خلف المشربة، فإذا سلاّمة واقفة والعود في يدها تغالب نفسها من الضحك، ودنا منها ابن سهيل فقال لها: «اجتهدي يا حبيبتي في صنعتك. إنا لا نريد القسّ ينصرف من هنا إلا وهو متبول القلب».

وغمزت سلاّمة عينيها مبتسمة وقالت: «سأفعل يا مولاي.. لا تخف».

ووقف ابن سهيل على باب المشربة بحيث يرى عبد الرحمن داخلها وسلاّمة خارجها وقال: «اسمع يا عبد الرحمن وأشار إلى سلاّمة فطفقت تحرك عودها وتغني:

تُنيلُ نَزْراً قليلاً وَهْيَ مُشْفِقَةٌ
كَمَا يَخَافُ مَسِيْسَ الْحيَّةِ الفَرِقُ
لا أعتقَ اللـهَ رِقّيْ مِنْ صَبَابتكم
ما ضَرّني أنّني صبٌ بِكُمْ قلِقُ
يَتُوقُ قَلْبِي إِلَيْكُمْ كَيْ يلاقِيَكمْ
كَمَا يَتُوْقُ إِلَى مَنْجَاته الْغَرِقُ!

فطرب ابن سهيل طرباً شديداً، ونظر إلى عبد الرحمن فألفاه ساكن الأطراف شاخِصَ البصر غير صدر يرتفع وينخفض وشفتين تختلجان، ويده اليمنى في طبق العنب لا يرفعها من الذهول.

وكانت سلاّمة طبّة[٢٧] بالغناءِ تصرفه وفْقَ ما تستلهمه من معاني الشعر الذي تغنيه، تجعل وَكْدَها أن تطابق بين نبرات صوتها وحركات المعنى، فتخرج القطعة من الشعر كأنها تُفسِّر بدلالة الترجيع والصوت فوق دلالة الألفاظ، لتأخذ معانيها سبيلها إلى نفس السامع كأنما كانت هذه المعاني تضطرب في نفسه من قَبْلُ ولم تأتِ إليها من الخارج.

كانت تعطي كل كلمة ما يناسبها من قوة الصوت أو ضعفه، ورفعه أو خفضه، واطراده أو تقطعه، وسرعته أو بطئه، واستوائه أو التوائه. حتى يخيّلَ إلى السامع فوق ما يشعر به من المعاني التي تسري من القطعة إلى نفسه أو تفيض من نفسه على القطعة – أنه يرى الكلمات وقد شاعت فيها الحياة كأنها أجسام بشرية تجيء وتذهب وتقوم وتقعد، وتلين وتقسو، وتصل وتصد، وتذهب مذاهب الحياة المختلفة.

وأشار ابن سهيل إلى سلاّمة أنْ حسبُك، والتفتَ إلى عبد الرحمن قائلاً: «هل أعجبك الغناء يا بن أبي عمار؟».

وذُعر عبد الرحمن لصوت ابن سهيل كأنما أفاق من حلم، وتمتم قائلاً: «أجل والله لقد هزَّ مشاعري».

قال ابن سهيل: «سيكون أفضل لو غنّتْ بين يديك، ألا أدخلها إليك؟». فقال عبد الرحمن بصوت خافت «لا يا بن سهيل. حسبي هذا».

قال ابن سهيل: «إنها جاريتي وقد أعجبك غناؤها، فما يمنعنك أن تغني بين يديك!».

وأعاد عبد الرحمن قوله: «لا يا بن سهيل».

ولكن صاحب الدار لم يمهله أن التفت إلى جاريته وقال لها: «تعالي يا سلاّمة.. أدخلي».

ودخلت سلاّمة باسمة كأنها روضة تشرق بالزهر وتنفح بالعطر.

فانبهر عبد الرحمن وجعل ينظر إليها مذهوباً زائغ البصر كأنه ينظر إلى شيء آخر غيرها، إذ تمثلت له صورة المرأة التي رآها في منامه المزعج، وخيل إليه أنه يسمع صوتها وهي تقول: «يا عبد الرحمن أنقذني.. يا عبد الرحمن أغثني!».

كان ذلك كله في لحظة هي في حساب الزمن ثانيةٌ أو بعض ثانية، وفي حساب الواقع لعبد الرحمن ظَرُف وَسع سماعَ صوت جميل آتٍ من خارج باب الجنة، وانطلاقه لسماعه حيث انتهى إلى الأعراف فرأى المرأة الجميلة العارية في يدها المزمار ففزعت إليه لمّا رأته، وتشبثت بعنقه وهي تصيح مستغيثة إلى آخر القصة.

ما راعه إلا صوت سلاّمة وهي تقول: «صباح الخير يا بن أبي عمار!». فأفاق من ذهوله واستمرت سلاّمة قائلة: «ماذا يخيفك مني.. هل فيّ من شيء يخيف؟».

فتمتم عبد الرحمن قائلاً: «.. نعم.. لا.. لا..».

قالت سلاّمة: «ألا أقعد فأغني لك؟».

فسكت عبد الرحمن ولم يجب.

قال ابن سهيل: «اقعدي يا فتاتي وهاتي ما عندك». وأشار إلى مقعد في الجانب المقابل للصدر فلمّت من أطراف ذيلها، وخَطَتْ إليه مدبرةً فإذا قوام خصبٌ يفصل وسطه الدقيق جنتين واسعتين، ثم انثنت مقْبلة وتهيأت لتقعد حيث أشير عليها قُبالة عبد الرحمن، فإذا جارية كعابٌ يحير في وجنتيها ماءُ الشباب، في وجهٍ يتردد الطرف فيه طويلاً دون أن يأخذ صورة واضحة من تقاطعيه المختلفة المؤتلفة في وقت واحد، وأسرار تكوينه الإلهي البديع المائج بصور شتى وظلال مختلفة وأطياف عجب.

والتقت عينا عبد الرحمن بعينيها، فإذا هما غزِلتان غضيضتان لا يشك الناظر إليها أن في وسعهما أن تتسعا بعد إذا دعاهما لذلك داع، وعلى خديها نونتان تغوران كلما ابتسمت، كأن الله خلقهما ليجتمع فيهما نبْع السحر الذي يتدفق من عينيها! ولها شفتان أرجوانيتان مهما صمتتْ فإنهما تقولان شيئاً.

وقد ارتدت حلة حمراء، وجعلت على رأسها غلالة بيضاء تستر النصف الأعلى من شعرها الأسود المنسدل على كتفيها من الخلف.

وأشار لها سيدها فاحتضنت عودها حانية عليه، وجعلت تحركه وتغني:

وما هِيَ إلاّ أَنْ أَرَاها فُجَاءةً
فأُبْهَتُ حَتّى ما أَكادُ أُجِيبُ
وأَصْرَفُ عن رَأيِي الّذي كُنْتُ أَرْتَئِي
وأَنْسَى الّذِي أَعْدَدْتُ حِيْنَ تَغِيبُ
ويُظْهِرُ قَلْبي عُذْرَها ويُعِينُها
عَلَيّ، فما لِي في الفُؤَادِ نَصِيْبُ[٢٨]

ولم ينشب عبد الرحمن أن بكى من التأثر، ورفع إلى سلاّمة عينين دامعتين وهو يقول: «أحسنت يا جارية الإحسان كله».

وتحرك للقيام فقال له ابن سهيل: «إلى أين يا عبد الرحمن؟ امكث قليلاً أيضاً.. ستسمعك صوتاً غيره».

ونظرت سلاّمة إليه قائلة: «نعم سأغني لك لحناً آخر».

فقال عبد الرحمن: «شكراً لكما، سأذهب الآن إلى أبي الوفاء حتى أدرك صلاة الظهر في المسجد.. إئذن لي يا بن سهيل».

قال ابن سهيل باسماً: «لا آذن لك حتى تعطيني موثقاً أن تختلف إلينا من حين إلى حين».

فوعده عبد الرحمن ذلك ونهض قائلاً: «شكراً لك يا سلاّمة».

ووقعت هذه الكلمة الصغيرة من عبد الرحمن موقعها في نفس سلاّمة، فلم تذكر أنها سرّتْ لكلمة قيلت لها من كلمات الإطراء والاستحسان سرورها بهذه الكلمة، ونهضت إلى باب المشربة وهي تقول: «إلى اللقاء».

وخرج ابن سهيل يودّع ضيفه العزيز إلى باب السور.

الفصل الثامن

كان ذلك اليوم يوماً فاصلاً في حياة عبد الرحمن، أصبح بعده لا يفكر إلا في سلاّمة، ولا يجد الأنس إلا في مجلسها، وكثر اختلافه إلى ابن سهيل، وأحبّه هذا فنشأت بينهما صداقة متينة تزداد قوة يوماً فيوماً.

وشغف عبد الرحمن بسلاّمة، فكان يحلم بها ليله ونهاره، ويتسلّل طيفها إليه حتى في صلاته وقيامه، وقامت بين نفسه الزاهدة الناسكة وبين نفسه المتفتحة للحياة حربٌ عوان[٢٩] صلي بنارها، وكان وقودها من روحه وجسمه، وشقي بها شقاءً لم يشق قبله مثله، كما سعد بها سعادة لم يجد لها من قبل مثيلاً.

وحليت الحياة في عينه، وأصبحَ يجد لها معاني لم تخطر له من قبل على بال، وتغيرت نظرته إلى الأشياء فأصبح يراها بعين غير العين التي كان يراها بها، وإلى الناس وأعمالهم، فأصبح كثير العطف عليهم والعذر لهم.

وتفتح قلبه للشعر بعد ما كان يزدريه ويعتبره من اللهو الذي لا يليق بالمتقين، فأصبح يهتزّ له ويقوله المرة بعد المرة ينفس به عن الكرب الذي يجده في صدره، أو يصف به السعادة التي يجدها في قرب سلاّمة.

واشتهر بمكة حديث القس وسلاّمة فكثرت فيهما الأقاويل، وتزيّدوا فيها ما شاء لهم الفضول واختراع الروايات.

وكان من جرّاء ذلك أن استوحش عبد الرحمن من مجالس الناس، ومال إلى الوحدة والعزلة، فكان يصلّي في ركن قصي من المسجد، ويخرج منه منفتلاً حتى لا يثير فضولهم، فيعتكف في بيته أو يذهب لزيارة ابن سهيل.

وانقطع برهة عن زيارة صديقه الشيخ الصالح أبي الوفاء كأنه كان لا يدري كيف يلقاه وبأي وجه يقابله، حتى اشتدّ به الشوق إليه فعزم أن يلقاه ويكشف له ذات أمره، لعله يجد عنده رأياً يهديه في حيرته، ومخلصاً ينقذه من ورطته.

وكان أبو الوفاء قد اشتاق إلى عبد الرحمن وعجب لانقطاعه عن زيارته، وقد وصل إليه بعض ما قيل عنه من الأحاديث ولكنه لم يصدق، أو لم يشأ أن يصدق شيئاً منه.

وأصبح ذات يوم قاعداً على فراشه، متدثراً بلحافه، وعنده صاحباه الكهلان يعودانه فقال له أحدهما:

«إنك اليوم أحسن حالاً يا أبا الوفاء». فقال أبو الوفاء: «أجل يا ولدي لله الحمد.. هل رأى أحدكما عبد الرحمن بن أبي عمار؟».

فأجابه أحدهما قائلاً: «إننا نراه كل يوم في المسجد كعادته – أما يزورك يا أبا الوفاء؟».

فقال أبو الوفاء: «لقد كان يزورني دائماً ولكنه انقطع عني منذ ثلاثة أسابيع، وما أدري ما الذي قطعه عني».

فتجرأ أحد الكهلين وقال: «لعل سلاّمة جارية ابن سهيل هي التي قطعته عنك».

وذعر أبو الوفاء لهذه الكلمة كأنما لم يتوقع أن يقولها أحد أصحابه أمامه، وقال وقد بدا الألم في وجهه: «سلاّمة؟ أتقولان هذا أنتما أيضاً؟ لقد حدثتني أختي عالية أنها سمعت الناس يتحدثون عنه أنه عشق جارية ابن سهيل، وأنه يذهب كل يوم لسماعها، فلم أصدق هذا القول، ورجوت ألا يكون صحيحاً».

فأجابه الكهل قائلاً: «لا يا أبا الوفاء بل هو صحيح وا أسفاه! لقد جُنّ عبد الرحمن بحبها وتدلّه حتى اشتهر أمره في الناس، فلم يبق بمكة بيت لم يسمع بحديث القس وسلاّمة».

وأيّد الكهل الآخر حديث صاحبه قائلاً: «بل لقد سمعتُ الجواري والغلمان يغنّون بأبيات في شأنهما في الطرقات».

فتنهّد الشيخ قائلاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. من كان يصدّق قط أن عبد الرحمن بن أبي عمار يجلس إلى مغنية، ويسمع مزمار الشيطان؟».

وحانت من أحد الكهلين التفاتة إلى النافذة المطلّة على جانب الطريق، فإذا به يرى عبد الرحمن مقبلاً في الشارع، فقال: «سبحان الله. هذا ابن أبي عمار مقبلاً.. ما أحسبه إلاّ آتياً لزيارتك يا أبا الوفاء».

فتهلّل وجه الشيخ وبرقت أساريره من الفرح وقال: «الحمد لله. إني لفي شوق إليه».

قال الكهل: «أرجو أنْ تنصحه يا أبا الوفاء عساه يعدل عما ورّط نفسه فيه». فقال أبو الوفاء: «إني لأستحي أن أكلمه في هذا الأمر».

«أتستحي من الحق يا أبا الوفاء؟».

«بل أستحي له من نفسي أن يقع مثله في أمر كهذا».

ونظر الكهل الآخر إلى باب الغرفة، فلمح عبد الرحمن مقبلاً، فالتفت إلى أبي الوفاء قائلاً: «ها هو ذا أقبل».

واستأذن عبد الرحمن في الدخول، فأذن له الشيخ فدخل مسلّماً فردّوا عليه السلام، ورحّب به أبو الوفاء قائلاً: «أهلاً بك يا بن أبي عمار..».

فقال عبد الرحمن: «كيف أنت يا أبا الوفاء؟».

«بخير يا بُنَيّ.. وأين أنت؟ لقد انقطعت عن زيارتي منذ زمن!».

«معذرة يا أبا الوفاء.. لقد كنت مشغولاً».

«أرجو أن يكون قد انتهى شغلك الآن».

فتنهّد عبد الرحمن قائلاً: «أرجو ذلك يا أبا الوفاء».

وعاد أبو الوفاء إلى السؤال فقال: «ما هذا الشغل الذي صرفك عنا يا بني؟».

ففهم عبد الرحمن من نغمة أبي الوفاء أن الشيخ قد علم بما كان من أمره، والتفت إلى صاحبيه الكهلين فكسرا طرفهما كأنما أشفقا أن ينظرا إلى وجهه، فسكت عبد الرحمن ولم يجب.

فقال أبو الوفاء: «قل لي يا عبد الرحمن فو الله ما كنت تخفي عني شيئاً».

فحاول عبد الرحمن أن يجيب الشيخ، فثقل عليه ذلك فأطرق رأسه ولم يجب.

ولكن إطراقه لم يطل إذ سمع صوت جارية تمشي في الشارع وتغنّي بلحن من الألحان الدارجة البسيطة التي يكثر ورودها في الحجاز، وتردّد بين فترة وأخرى فتشيع على الألسنة، وتسير بها الركبان. وهي أشبه شيء بالحداء في بساطتها وسهولتها لولا خلوها من تلك الروح البدوية الفحلة، ولولا أن فيها من الطابع الحضري الرقيق الناعم الذي لا يخلو في كثير من الأحيان من روح المجانة والاستهتار. كثيراً ما تتضمن هذه الأغاني الدارجة خبر حادث من الحوادث العامة التي تقع في الحجاز أو غيره من البلدان الإسلامية الأخرى، أو نقداً لعمل والٍ من الولاة أو تشهيراً بفضيحة اجتماعية أو خلقية، فكأن تلك الأغاني كانت تقوم في ذلك الوقت مقام الصحف في أيامنا هذه.

وسمع أبو الوفاء وأصحابه صوت الجارية وهي منطلقة لحاجتها في الشارع، كأنما تتولى عن عبد الرحمن ما ثقل عليه من الجواب وهي تقول:

الآنَ فليُعلنْ — مَنْ شاءَ تَهْيَامَهْ
قدْ وقعَ القَسّْ — في حُبّ سلاّمةْ!
لَمْ يَحْمِه الحبّا — صِيامُه الدّائمْ
وخَوْفه الربّا — وليلهُ القائمْ
أَيْنَ عِبَادَاتكْ — يا بن أبِي عَمّارْ
أَمْسَتْ صباباتُكْ — أُحْدُوثَةَ السّمّارْ!
سلاّمةَ القَسّ! — ليَهْنَك القَسّ
يا مُنْيَةَ النّفْسِ — أَنْتِ لَهُ نَفْسُ!

فحمَى أبو الوفاء غضباً وقال: «ويل لابنة الفاعلة». والتفت إلى أحد الكهلين قائلاً: «اخرج يا عبد الله فكمّ فمها».

فاستجمع عبد الرحمن قوته وقال: «بل دعها يا عبد الله فهي أبيات سائرة في أفواه العشرات من الجواري والغلمان في أزقة مكة وشوارعها».

فقال أبو الوفاء وهو يرجف من الغضب كأنه نسي ما قد سمع مما قيل عن صاحبة الشاب الناسك: «لا بد من شكواهن إلى الوالي.. كيف نسكت عن هذا البهتان؟».

فقال عبد الرحمن بهدوء: «إنه ليس ببهتان يا أبا الوفاء».

فنظر إليه الشيخ كأنه ينكر عليه قوله وقال: «معاذ الله أن يقع منك هذا يا بن أبي عمار».

فغلب عبد الرحمن البكاءُ وقال بصوت تخنقه العبرة: «إنه والله قد وقع يا أبا الوفاء.. ولا حيلة لي فيه».

فسكت أبو الوفاءِ وهو يغالب عبرة تجول في عينيه ثم قال: «إن تك قد وقعت في شيء من ذلك فأنبْ إلى اللـه فإن المؤمن إذا تاب ناب اللـه عليه[٣٠]».

فقال عبد الرحمن بصوت متقطع: «لقد جاهدتُ لأصرف نفسي عن رؤية هذه الجارية وسماعها، فلم أجد إلى ذلك سبيلاً».

قال أبو الوفاءِ: «في وسعك لو شئت أن تنقطع عن دار ابن سهيل وتفرغ إلى صلاتك».

فأجابه عبد الرحمن وقد عادت إليه رباطة جأشه قائلاً: «لقد فعلت ذلك فوجدتُني لا أنشط إلى صلاتي في اليوم الذي لا أرى سلاّمة فيه».

فحوقل أبو الوفاءِ وقال بلهجة فيها صرامة وقسوة: «أوَ قد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ يا قَسّ حتى استطاع أن يريك الباطل حقّاً؟».

فقال عبد الرحمن: «أبعد من هذا يا أبا الوفاءِ، حتى لأشكّ أنّ هذا من عمل الشيطان، فقد وجدتُني بعد أن بُليت بحب هذه الجارية أكثر نشاطاً في عبادة ربّي، وأغزر دمعة في صلاتي، وإذا قرأت القرآن رقّ قلبي وذاب، وشعرت بفيض من المعاني ينثال عليّ!».

سكت الشيخ هنيهة كالمتعب مما سمع ثم قال: «لا يغرنك هذا يا عبد الرحمن، فإن للشيطان إلى نفس المؤمن لمسارب أدقّ من الشعرة، وقد أمر اللـه نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يعوذ به من شر الوسواس الخَنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس، مِنَ الجِنّةِ والناس».

فقال عبد الرحمن وقد عادت رقته إليه: «إنْ يكن ما تقول حقاً فيا طول شقائي؟».

وكأنّ الشيخ كان مشغولاً بأفكاره عن مقال عبد الرحمن، فلم يصغ إليه واستأنف حديثه قائلاً: «أخشى يا بن أبي عمار أن أكون شريكاً في هذا الذنب، فأنا الذي بعت سلاّمة لابن سهيل مع علمي بأنه سيعلّمها الغناءَ.. ولعلّ اللـه عاقبني على ذلك بأن سلّط فتنتها على أحبّ الناس إليّ».

وابتدره أحد الكهلين وقال: «ما أشد محاسبتك لنفسك يا أبا الوفاءِ! إن اللـه يقول: »ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى».

ولم يجد الشيخ فرصة ليقول كلمة أخرى، إذ رنّ صوت غلام على حماره في الطريق وهو يغنّي:

الآنَ فـلـيُعـلـنْ	مَنْ شاءَ تَهْيامَـهْ
قدْ وَقَعَ القَـسّ	في حبّ سلاّمـة!
لَمْ يَحْمه الحبّا	صِيـامُه الدّائـمْ
وخَوْفـه الربـّا	ولَيـلـهُ القائـمْ
أَيْنَ عِبـَادَاتـكْ	يا بن أبِي عَمّـارْ
أَمْسَتْ صباباتُكْ	أُحْدُوثـةَ السُـمّارْ!
سلاّمةَ القَـسّ!	لـيَهْنكَ القَـسّ
يَا مُنْيَةَ النّفْـسِ	أَنْـتِ لَهُ نَفْـسُ!

الفصل التاسع

عاد عبد الرحمن بن أبي عمار لزيارة صاحبه الشيخ أبي الوفاءِ بعد ذلك مرتين، حاول فيهما أن يقنعه بعذره فيما ابتُلِي به من ذلك الحب الذي لا قِبلَ له بدفعه، لعله يظفر منه بكلمة ليّنة، تنزل برداً وسلاماً على صدره المتأجج بالحب، وقلبه الطافح بالحيرة، وتضع حدّاً للحرب المستعرة القائمة بين نفسه الأولى ونفسه الثانية، فليس من الحق عنده أن لا يكون لمثل هذه الحالة الموجودة في صميم الحياة، وفي فطرة اللـه التي فطر الناس عليهما جميعاً، من علاج غير البتر لو كان في استطاعته البتر، فكيف ولم يكن له بهذا البتر يدان.

ولكن أبا الوفاءِ كان شديداً صارماً في موقفه من عبد الرحمن فلم تأخذه في ذلك هوادة أو لين، وتمسك بأن ما وقع فيه عبد الرحمن من الفتنة بهذه القينة والسماع لألحانها إثم صريح لا تأويل فيه، ولا يغفره اللـه له حتى يقلع عنه الإقلاع ويكف عنه ألبتّة. وكان يشتدّ على عبد الرحمن في ذلك بما له من الدّالة عليه، ويجتهد بكل وسيلة أن يحمله على الرجوع إلى سيرته الأولى، ونسي ما بينه وبين صديقه الشاب من فارق السنّ، فما يراه هو وأمثاله من الشيوخ الطاعنين في السن، السائرين في المرحلة الأخيرة من الحياة، ممكناً سهل الانتهاج، قد يكون في نظر شاب مثل عبد الرحمن مستحيلاً أو كالمستحيل.

وقد نشأ أبو الوفاءِ في عصر عبد الرحمن، وأخذ نفسه بالشدة والصرامة من صغره. واشتغل بالتجارة والكسب من سنيّ حياته الأولى، ولمَ يَعِن له من الظروف القاهرة ما مال به عن النهج الذي اختطه لنفسه في الحياة، فكان صارماً على نفسه وعلى أهله، وقد رأينا كيف اشتدّ في معاملة جاريته سلاّمة التي ربّاها من صغرها. وكان يحبّها وتحبّها زوجه أم الوفاءِ حبّاً يقرب من حب الولد. فلما رأى ميلها للغناءِ وحاول صرفها عنه فلم يفلح، باعها غير نادم عليها فكان من جرّاءِ ذلك أن ماتت زوجه على آثارها حزناً.

ورأينا كذلك شدّته على أرباب اللـهو والغناء، وحملته القاسية عليهم، وسعيه لدى الولاة لإخراجهم من مكة حتى لا يفسدوا فتيانها، ورأينا كيف يستعين في ذلك بصديقه الشاب الفقيه الناسك لمكانته في نفوس أهل مكة، حتى كان يضرب به المثل في نسكه وعبادته.

فليس بعجيب أن تكون صدمته عنيفة إذ عاش حتى رأى أمله يخيب في صديقه القس الذي طالما اعتزّ به. واعتبره المثل الذي ينبغي أن يكون عليه شباب الإسلام في هذا العهد الذي أخذ فيه اللـهو يطغى على الجد، وأوشك حب التّرف والميل إلى الاستمتاع بملذات الحياة الفانية يقضي على ما بقي في قلوب الناس من روح التقوى والورع والزهد.

ولم يكن استجداءُ عبد الرحمن فتيا صاحبه أبي الوفاءِ بما ينقع من غلته، ويشدّ من عزيمته، ويوفق بعض التوفيق بين ما وقع فيه من الضرورة والمحنة، وما يتطلبه مثله الديني الأعلى – لم يكن ذلك عن جهل منه بالدين، فقد كان عبد الرحمن فقيهاً، وكان الشيوخ والكهول لا يجدون حرجاً في الأخذ عنه، واستفتائه فيما ينوبهم من أمور دينهم، ولكنه أراد أن يستبرئ لنفسه ولدينه، وطمع في صديقه الشيخ أن يكون عوناً له على الخلاص بوجه من الوجوه المعقولة من ذلك المأزق الذي وقع فيه، وظهيراً له يساعده في اجتياز تلك المحنة النفسية الكبرى التي لا يؤمَنُ فيها على مثل شبابه العارِم أن يتردّى به في مهاوي الهلاك الأكبر.

ولكنه لم يجد من أبي الوفاءِ إلا صلابة يراها في غير محلّها، ولا مطمع له معها في أن يبرأ من العلّة التي يشكو منها، فرأى أن ينقطع عن زيارته ريثما يصلح بنفسه من أمره ما عجز عن إصلاحه بالتعاون معه. وكان شديداً على نفسه أن يقطع بيده عرى الصداقة المتينة التي ربطت بينه وبين الشيخ الصالح برهة من الزمان قضياها في تقوى اللـه، وتعاونا فيها على البِرّ والإحسان، ولكن قضي الأمر ولم يكن بد من ذلك إبقاءً على حرمة الشيخ وتفادياً من إيذائه في تلك السن العالية بأكثر مما أوذي به من المجادلة والحجاج.

وكان كرور الأيام قد خفّف كثيراً من الحيرة التي كان يجدها عبد الرحمن في أمر ذلك الحادث الخطير الذي طرأ عليه، واطمأنّ بعض الاطمئنان إلى موقفه منه أمام ربه، فكأنه قد وجد من نفسه الفُتيا التي طالما طمع أن ينالها من صاحبه الشيخ فلم يُقْدّر له ذلك.

وهدأت تلك الحرب الجبّارة التي كانت تستعر في رأسه بين نفسه التقية الزاهدة ونفسه المقبلة على الحب والحياة، فكأنما تصالحتا على ما فيه الخير لصاحبهما، أو ضعفتا من طول العراك فتوادعتا إلى أجل غير مسمّى.

ولكن إنْ هدأت هذه الحرب القائمة في رأسه، فقد قامت حرب أخرى لا تقلُّ هولاً عن تلك في صدره، بين شغفه بسلاّمة ورغبته الظامئة في الحصول عليها، وبين شعوره بالعقبات التي تقوم في طريقه دونها. فهو يعلم أن ابن سهيل يحب جاريته ويؤثرها على كل ما يملك في الحياة، ويفضّل سَماعَها على كلِّ نعيم وكلِّ متعة من متع العيش؛ فلا يعقل أن يبيعها لأحد ولو أعطى بها أضعاف أضعاف ثمنها. وهَبْ أن يرضى ببيعها فأيُّ مال في الدنيا يقوم بثمن تلك الجوهرة الغالية التي لو لم يكن في الدنيا غيرها لما نقصها ذلك من متاعها وزينتها شيئاً. وبَعْدُ فماذا يملك عبد الرحمن من المال غير تلك الضيعة التي ورثها عن أبيه والتي لا تساوي في نظره نظرة ينظرها في وجه سلاّمة، أو لحظة يسمع فيها غناءَها العذب.

لقد عَلِمَ عبد الرحمن أن سلاّمة تضمر له مثل ما يضمر لها من الحب، عرف ذلك من نظرات عينيها، وفلتات حديثها، وخفوفها للقائه كلما أقبل، ونشاطها عند حضوره كلما حضر، ووجومها عند انصرافه من دار مولاها. وتلك نعمة كبرى لا يستطيع عبد الرحمن القيام بشكرها، ولكن ما قيمة هذه عنده وغناءها له، وهو لا ينوي ريبة يريبها معها ولا يريدها إلا حلالاً؟

وهل تدور الريبة قط بخلد عبد الرحمن وهو ما هو في تقواه وورعه وفقهه ودينه وخوفه من اللـه وشدة محاسبته لنفسه؟ لأهْوَنُ عليه من ذلك أن يخرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

وبمن يقترف الريبة؟ أبتلك التي وهبها قلبه وأحب الحياة من أجلها وعرف جمال الكون لما عرفها؟

ومن يخون فيها؟ أذلك الصديق الكريم الذي أحبه وأعزّه ووطأ له كنفه وأحله من نفسه محلاً كريماً، وائتمنه على حرمته ووثق بعصمته ودينه؟

ذلك الصديق الكريم الذي تغاضى زمناً عن الحبّ الوليد الذي أخذ ينمو بينه وبين جاريته الأثيرة عنده على مرّ الأيام، حتى إذا ترعرع وبلغ أشده لم يبخل أن يؤثر بها على نفسه، فيعرضها عليه هِبة خالصة من عنده على شدّة تعلقه بها ونفاستها عنده، فما حال بينه وبين تخلّيه عنها لعبد

الرحمن إلاّ إباءُ عبد الرحمن.

على أن هذا العَرْضَ الكريم من قِبَلِ ابن سهيل الذي أبى عبد الرحمن قبوله كراهية أن يرزأ صديقه في ماله – ولاسيما بعدما انتهى إليه سرّاً من وقوع ابن سهيل في الضيق وكثرة الديون عليه من جراء جوده وإسرافه – قد قوى من أمل عبد الرحمن في الحصول على سلاّمة فاعتزم في نفسه أمراً.

ورُؤى عبد الرحمن بعد ذلك يشتغل بالسمسرة في السوق ويجتهد في الكسب، فلم يعجب الناس لأمره بعدما كان منه ما كان؛ ولكنّ أحداً لم يعلم ماذا طوى عزمه عليه. وإذا أظله الليل وقضى صلاة العشاءِ الأخيرة خرج إلى العراءِ خارج مكة وارتقى شعباً من شعابها فقضى شطراً من ليله هناك ينظر في السماء ويتأمل في النجوم.

وبكّر عبد الرحمن ذات صباح إلى ابن سهيل فتلقاه بالبشر والترحيب كعادته، وجلس يحادثه في المشربة فقال له فيما قال: «لقد أعجبتني أبياتك يا بن أبي عمار، إنك لشاعر».

فقال عبد الرحمن وقد أدركه شيء من الخجل: «أي أبيات تعني يا بن سهيل؟». فأجابه ابن سهيل قائلاً: «الأبيات التي قلتها في سلاّمة».

فازداد خجل عبد الرحمن حتى تورد خده وتمتم قائلاً: «ولكنني..».

فقاطعه صاحبه قائلاً وهو يبتسم: «لا تحاول إخفاءَها عني، لقد أنشدتْها سلاّمة لي فأعجبتُ بها، وقد وضعتْ لها لحناً».

وأقبلت سلاّمة عند ذلك ودخلت باسمة وقالت: «أنعم صباحاً يا عبد الرحمن».

فأجابها عبد الرحمن قائلاً: «عمي صباحاً يا سلاّمة.. إني ساخط عليك».

قالت متدللة: «علام يا بن أبي عمار؟».

قال لها: «ألم تعديني بأن لا تنشدي الأبيات لمولاك؟».

فكسرت طرفها له وقالت: «دع عنك هذا.. لقد سُرّ مولاي بأبياتك ووضعت لها لحناً».

فقال ابن سهيل: «إن عبد الرحمن يخشى أن أغار منه عليك يا سلاّمة..».

فضحكت سلاّمة وقالت: «ليطمئن بالك.. إن مولاي لا يغار مِمّنْ يشبّب بجاريته بل يسرُّه أن يسمع شعراً رائعاً كشعرك».

فقال ابن سهيل: «أجل والله إنه لشعر رائع – هاتي أسمعينا يا سلاّمة».

فقامت إلى عود معلّق في الحائط فأخذته، والتفتت إلى عبد الرحمن قائلة: «إنه لحن سيعجبك». ومالت بجنبها متكئة على الوسائد العالية وأخذت تجرّب عودها وتشدّ أوتاره، كأنما تضبطه على لحنها الجديد، وطفق العود يترنم في حجرها وهي تغني:

سَلاَمٌ هَلْ لِيَ مِنْكُمْ نَاصِرُ؟
وَهَلْ لِقَلْبِيْ عَنْكُمُ زَاجِرُ؟
قَدْ سَمِعَ النَّاسُ بِحُبِّي لَكُمْ
فَمِنْهُمُ اللاَئِمُ وَالْعَاذِرُ[٣١]!

ولم يملك ابن سهيل نفسه من الطرب أن قام إلى عبد الرحمن فضرب بيده على ظهره قائلاً: «ثق يا بن أبي عمار أني لك لمن العاذرين!!».

وعاد إلى مقعده واستمرت سلاّمة في غنائها:

قَالوا أحبّ القَسّ سلاّمةَ
وَهْوَ التّقيُّ النّاسِكُ الطّاهِرُ
كَأَنّما لَمْ يَدْرِ قَبْلي الْهَوى
إلا الغويُّ الْفَاتِكُ الْفَاجِرُ

فظهر التأثر الشديد على عبد الرحمن، وما بلغت سلاّمة إلى قولها:

يَا قَوْمِ إِنّيْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
وَفَاطِرِيْ رَبُّكُمُ الْفَاطِرُ
لِيْ كَبِدٌ تَهْفُوْ كَأَكْبَادِكُمْ
وَلِيْ فُؤَادٌ مِثْلُكُمْ شَاعِرُ!

حتى طفق عبد الرحمن يبكي، فقال ابن سهيل: «أعيدي يا سلاّمة: يا قوم..».

فأعادت البيتين فقال عبد الرحمن وهو يمسح دموعه: «حسْبُك يا سلاّمة حسْبُك. لكأني والله لم أقل هذه الأبيات، لقد كسوتها بتلحينك روحاً لم تكن لي».

فقالت سلاّمة: «إنما أعجبني شعرك فألهمني هذا التلحين».

وبينما هم في ذلك إذ دخل غلام ابن سهيل، فدنا من مولاه وأخبره أن بالباب رسول القاضي يريد أن يراه؛ فبدت على وجهه مسحة من الكدر وقال للغلام: «ائذن له بالدخول».

فانطلق الغلام وخرج ابن سهيل في أثره من المشربة، حتى إذا بلغ باب السور وجد الرسول فحياه وقال له الرسول: «أجبْ مولانا القاضي يا بن سهيل». فقال ابن سهيل: «سألحق بك».

قال الرسول: «لا يا بن سهيل، إنه كلّفني أن آتي بك الآن لأن دائنيك قد حضروا هناك».

فقال ابن سهيل: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. خيراً.. انتظرني لحظة سأرتدي عباءتي».

وانطلق ابن سهيل ناحية الدار فارتدى عباءَته، ثم عرج على المشربة فوجد عبد الرحمن وسلاّمة جالسين كما كانا، فقال لهما: «لقد دعاني القاضي في أمر هام، فابْقيا مكانكما حتى أعود إليكما».

فهمّ عبد الرحمن بالقيام قائلاً: «إئذَنْ لي بالانصراف يا بن سهيل».

فأجلسه ابن سهيل قائلاً: «كلا يا عبد الرحمن، بحياتي عليك إلاّ ما بقيت مكانك حتى أعود».

والتفت إلى سلاّمة فقال لها: «استمري في غنائك ولا تدعي ابن أبي عمار يخرج حتى أعود إليكما».

فقالت سلاّمة: «سمعاً وطاعة يا مولاي».

وخرج ابن سهيل، فلقى الرسول على الباب فسار معه.

وخلا المجلس بعبد الرحمن وسلاّمة، وساد فيه الصمت برهة من الزمن شعر في خلالها عبد الرحمن بشعور غريب، فيه رهبة وفيه ضيق وفيه شيء من الفرح، وتمادى به هذا الشعور الغريب حتى خُيِّل إليه أنه أشبه ما يكون بمن أسقط في يده، أو وقع في فخّ نصب له، فندم على أن لم يُصِرّ على ابن سهيل في طلب الانصراف، وخطر له أن يترك سلاّمة وينصرف لولا أن رأى ذلك قد يثير في قلب صديقه ظنّة لا داعي إليها، وذكر ثقته بنفسه ومعرفته لواجبه فاطمأنّ إليهما، وعجب كيف ساوره ذلك الاضطراب.

أما سلاّمة فكانت أهدأ من صاحبها إذ ذاك، ولكنها كانت لا تخلو مع ذلك من وجوم وارتباك، وكان الله وحده يعلم ماذا كان يجول في خاطرها.

على أنها لم تصبر على الصمت طويلاً، ولعلها أدركت ببصيرة الأنثى في مثل هذه المواقف بعض ما دار في خَلد جليسها، فتشاغلت بالعود وجعلت تضرب عليه لحناً صامتاً لعله لو حفظ لكان أجمل تعبير موسيقيّ وأصدقه عن هذه الحالة المعقدة من حالات النّفس الإنسانية!

ووضعت العود من يدها ونظرت إلى عبد الرحمن قائلة: «ألم تصنع فيّ شعراً آخر يا عبد الرحمن؟».

فرفع عبد الرحمن بصره إليها في شيء من الاضطراب وقال: «لا يا سلاّمة». فابتسمت قائلة: «لا أصدقك يا عبد الرحمن. لا بد أنك قلت شيئاً جديداً».

فقال عبد الرحمن – وقد شعر بتبدُّد الانقباض الذي كان يسود المجلس: «وماذا تصنعين بشعري؟ لست بشاعر. عندك ابن أبي ربيعة والعرجي، وعندك الأحوص وابن قيس الرقيات وأولئك الفحول، فالتمسي شعرهم».

فقالت سلاّمة بلهجة يخالطها الجد: «لا يعجبني شعر هؤلاء. إني أحب شعرك يا عبد الرحمن، وأجده يبلغ مني ويلهمني التلحين البارع». ثم ضحكت وقالت: «لقد غنيتُ أبياتك أول أمس للغريض ومعبد فلم يصدّقا أن التلحين من عملي، وظنّ كلاهما أنه من عمل صاحبه».

قال عبد الرحمن: «ماذا تجدين يا سلاّمة في شعري؟».

فصمتت سلاّمة لحظة ثم قالت: «لا أدري يا عبد الرحمن، ولكنني أجده يحركني وتستجيب له نفسي.. فبالله عليك يا عبد الرحمن ألم تقل

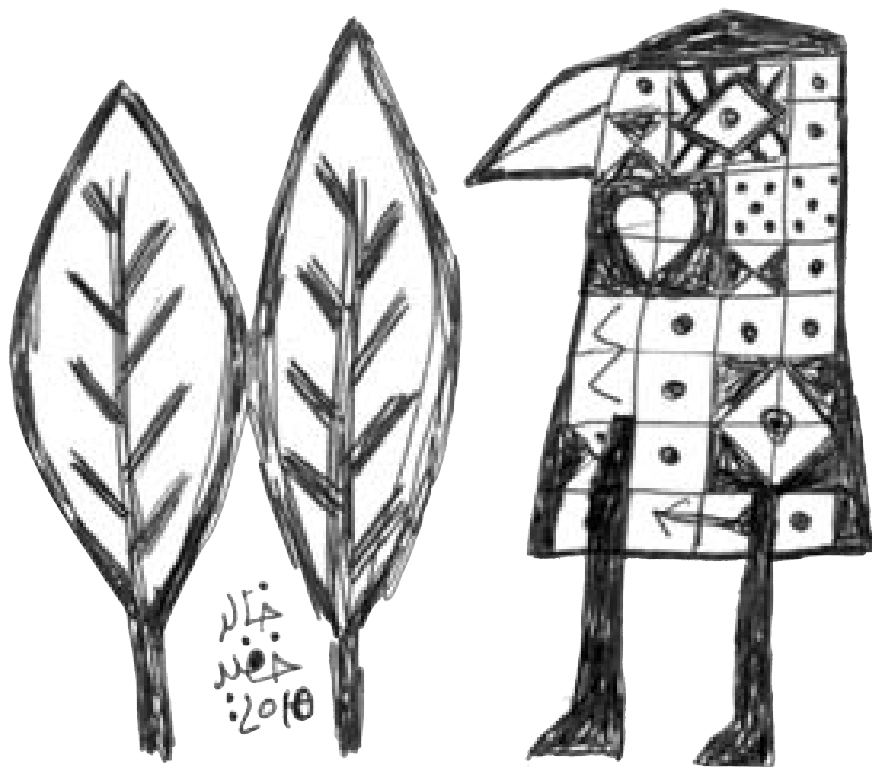

شيئاً جديداً».

فقال عبد الرحمن: «بلى يا سلاّمة، ولكني لن أطلعك عليه».

«ولم يا عبد الرحمن؟».

«لأنك نقضت ميثاقي».

«نقضت ميثاقك؟ معاذَ الله يا بن أبي عمار.. إن ميثاقك مكتوب في قلبي ولن أنقضه أبداً».

«ألم تنشدي شعري لمولاك؟».

«أما زلت تعدّ هذا ذنباً يا عبد الرحمن؟ لمَن أنشده إن لم أنشده لمولاي ابن سهيل؟».

«وأنشدتيه أيضاً للغريض ولمعبد».

«إنما فعلت ذلك لأعرف رأيهما في اللحن الذي عملته».

«أتعدينني ألا تنشديه لمولاك ولا لأحد غيره؟».

فأجابته سلاّمة قائلة في صيغة تمريض: «لك عندي ما تشاءُ، فهات يا عبد الرحمن».

فأخرج عبد الرحمن من جيبه قرطاساً فدفعه إلى سلاّمة، فنظرت فيه ثم ردته إليه وقالت: «اقرأه يا عبد الرحمن». فقرأه.

فتأثرت سلاّمة تأثراً شديداً، ولكنها حاولت إخفاءَه فَجذَبتْ القرطاس من يد عبد الرحمن، ووضعته أمامها وطفقت تضرب على عودها – وهي ناظرة في القرطاس – لحناً صامتاً شجياً غامضاً غير مستقر، وما زالت بعودها تعالجه حتى استقر اللحن بعض الاستقرار، فالتمعت عيناها، ونظرت إلى عبد الرحمن باسمة

وأخذت تغني:

عَلامَ سَلَبْتِ يَا سلاَمُ قَلْبي؟
فَعَافَ الرُّشدَ واسْتَحَلى الضَّلالا

فاهتزّ عبد الرحمن فرحاً وقال: «ماذا، أوَجدت اللحن؟».

فأشارت سلاّمة برأسها أنْ نعمْ، واستمرّت تغني:

وَقَبْلكِ مَا عَرَفْتُ سوى صَلاتي
وَلَمْ يَنَلِ الْهَوى منِّي مَنالا
سَمعتُك فاجْتَوَاني نَصْفُ عَقْلي
فَلَمَّا لُحْتِ لي ارْتَحَلَ ارْتِحَالا

وأخذ اللحن يستقرّ شيئاً فشيئاً، وأخذ صوتُها يعلو وهي تقول:

عَذيري اللـه من بصري وَسَمْعي!
فَقَدْ كَانَا عَلى قَلْبيَ وَبَالا
دعيني أستقيلك بعضَ لُبِّي
ولُب المرء أفضل ما استقالا

وارتفع صوتها إلى الأوج عندما غنّت:

أَهَابُكِ أنْ أقُولَ بَذَلْتُ نَفْسي
وَلَو أنِّي أَطَعْتُ الْقَلْبَ قَالا

ثم خفضت صوتها حتى اضمحلّ في القرار وهي تقول:

حَيَاءً مِنْكِ حَتّى ذَابَ جِسْمي
وشقّ عَليَّ كِتْمَاني وَطَالا[32]!

ووضعت العود من يدها في حجرها، ونظرت إلى وجه عبد الرحمن نظرة تائهة فيها كل معاني الاستسلام والغزل، وقد تورّد خدّاها وربا جسمها كأنما نُفخَ فيه فزيدَ بسطة. فنظر إليها عبد الرحمن فخفضت طرفها، وأخذت تقلب العود في يدها وهي تقول: «يا بن عمار إني أحبك».

فقال عبد الرحمن وهو يضطرب: «وأنا واللـه يا سلاّمة أحبك؟».

فقالت وهي تنظر إليه مائلة الرأس: «وأحب أن أضع فمي على فمك».

فقال لها وبصره إلى الأرض: «وأنا واللـه أحب ذلك».

فقامت سلاّمة ودنتْ منه وأخذت بيده قائلة: «إذن فما يمنعك؟ فواللـه إن الموضع لخال».

فذهل عبد الرحمن، وخُيِّل إليه أنه يرى طيفاً في حلم، وبقي صامتاً يدير طرفه في أنحاء المشربة فقالت سلاّمة: «ليس عندنا من أحد غيري وغيرك!».

فانتفض عبد الرحمن فجأة، ونظر إليها نظرة هائلة وقال: «أنسيت اللـه يا سلاّمة؟».

فاضطربت سلاّمة ورفعتْ يدَها عن يده، وكأنّ ناراً لذعتها، فتراجعت إلى الوراء وعيناها الزائغتان لا تفارقانه كأنما ترى أمامها هَوْلاً تتقيه.

واستمرّ عبد الرحمن يقول: «لا يا حبيبتي لا، إني أحبك يا سلاّمة، وإني سمعت اللـه عز وجل يقول: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين». وأنا أكره أن تصير الخلّةُ التي بيننا عداوة يوم القيامة!».

وغامت عيناه بالدموع، وعادت سلاّمة إلى مقعدها ومالت بوجهها على المتكأ وطفقت تبكي؛ ثم رفعت رأسها وقالت والدموع تتساقط على خديها: «معذرة يا عبد الرحمن. عسى أن لا تكون ساخطاً عليّ».

فقال عبد الرحمن بصوت يخنقه البكاءُ: «كلا واللـه يا حبيبتي، أنا راض عنك.. ولكن اصبري حتى يجعل اللـه لنا مخرجاً».

فصمتت سلاّمة هنيهة ثم قالت: «وكيف المخرج يا عبد الرحمن؟».

فقال لها: «لا أدري واللـه يا سلاّمة».

فعادت إلى صمتها ثم قالت: «ولكنني أدري يا عبد الرحمن.. ألا تستوهبني من مولاي ابن سهيل، فإنه واللـه ليحبّك، وإنه لكريم وما أحسبه يضنُّ[33] بي عليك».

قال عبد الرحمن: «صدقت يا سلاّمة، لقد فعل ابن سهيل ذلك.. قد عرض عليّ منذ أيام أن يَهَبَك لي».

فابتدرته سلاّمة قائلة: «أحقّاً فعل ذلك يا بن أبي عمار؟».

فقال لها: إيْ واللـه لقد فعل.. ولكنني لم أقبل».

فقالت بلهجة العاتب: «ولمَاذا لم تقبل؟».

«لأني لم أشأ أن أرزءَ هذا الرجل الكريم في ماله، فقد بلغني أنه في ضيق وأنْ قد ركبتْه ديون كبيرة».

«وكيف علمت ذلك يا عبد الرحمن؟».

«سمعتُ الناس يتحدّثون بذلك يا سلاّمة».

فتنهدت سلاّمة وقالت: «أجل هذا حقّ.. مسكينٌ مولاي! لقد جنَى جوده وإسرافه عليه».

فقال عبد الرحمن: «أشهد أنه لجواد كريم.. حتى في أيامه هذه الحرجة لم يشأ إلا أن يفتح بابه لضيوفه وزوّاره».

قالت سلاّمة: «ولإخوانه الشعراء العابثين، والمغنين الماجنين ينفق عليهم بغير حساب».

فسكت عبد الرحمن مليّاً ثم قال: «أجل كنت ألوم هؤلاء القوم وأحمل عليهم بقسوة، حتى انتقم اللـه لهم مني فجعلني مثلهم أو قريباً منهم».

«كلا لست مثلهم يا بن أبي عمار. أنت لا تعبث عبثهم ولا تأخذ أخذهم».

«أستغفر اللـه يا سلاّمة.. بل لعلهم أحسن حالاً منّي، إنهم لم يجالسوا عطاءَ بن أبي رباح، ولم يتفقهوا في الدين مثلي، لعلهم لو فعلوا لما وقعوا فيما وقعت فيه». ثم أخذَ يقول:

قدْ كُنْتُ أَعْذلُ في السَّفَاهَة أهْلَهَا
فَاعْجَبْ لمَا تَأْتي به الأيَّامُ
فَالْيَوْمَ أَعْذرُهُمْ وَأَعْلَمُ إنَّمَا
سُبُلُ الْغَوَايَة والْهُدَى أَقْسَامُ

وسكتت سلاّمة برهة كأنها تجيل فكرها في أمور شتى، ثم قالت: «قد علمت يا عبد الرحمن ما وقع فيه مولاي من الضيق، وأنه لا محالة بائعي، وأخشى أن لا أراك بعد ذلك ولا تراني».

فقال عبد الرحمن: «لقد حدثتني نفسي أن أبيعَ مالاً لي بالوادي ورثتُه عن أبي، فأشتريك بثمنه فأعتقك فأتزوجك.. أترضين بهذا يا سلاّمة؟».

فأجابت قائلة: «كيف لا أرضى بهذا يا عبد الرحمن وأنا راضية بما دونه؟ بحسبي أن أكون جاريتك، أقوم بخدمتك، وأعمل على راحتك.. ولكن إذا بعت مالك فمن أين تعيش؟».

فابتسم عبد الرحمن وقال: «سأخرج إلى السوق وأشتغل سمساراً، وقد جربت ذلك يا سلاّمة فنجحت فيه».

فضحكت سلاّمة وقالت: «والمسجد يا عبد الرحمن؟».

قال لها: «للمسجد وقت، وللسوق وقت، ولك أنت يا سلاّمة وقت. ولست بأفضل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وقد كان أولهما تاجراً وثانيهما دلالاً.. وإنهما لأفضل من أبي هريرة وسائر أهل الصُّفّة الذين لزموا المسجد الحرام ولم يشتغلوا بالكسب».

ارتاحت نفس سلاّمة لهذا القول، وكأنما أرادت أن تستزيد منه فقالت: «عجباً يا عبد الرحمن، من أين جاءك هذا الرأي؟ أما سمعت بهذا من قبل؟»

فقال لها: «بلى قد سمعت به من قبل، ولكنني لم أفقهه فلم أعمل به، وإنما فقهته بعد إذ عرفتُك يا سلاّمة وفكرتُ فيك».

فقالت سلاّمة في دلال وقد ملكها الزّهْوُ:

«إذنْ فلا حقّ أن تلمْني بأني صرفتك عن الخير!».

فنظر إليها عبد الرحمن في وداعة وصفاء، وقال لها في تؤدة وهدوء: «إني والله لأحار.. وإني والله لا أدري أشغلتني يا سلاّمة عن الخير أم هديْتِني إليه! ولله فيّ وفيك إرادة هو بالغها.. إني ما كنت في الزواج حتى عرفتك ففكرت فيه، وقد تزوج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «النكاح سُنّتي، فمن رغب عن سُنّتي فليس مني». وإني كنت أتلو القرآن وأقرأ فيه آيات السماوات والأرض والنجوم فما أهتزُّ لها كما أهتزُّ لآيات الوعد والوعيد، حتى عرفتك يا سلاّمة فصرتُ أخرج في السَحَرِ وأصلّي في العراء لأتمتّعَ بجمال النجوم وأنظر في ملكوت الله. وإني كنت أرى المُجّان فأبغضهم وأقسو عليهم وأقول لنفسي: كيف يترك الله هؤلاء؟ حتى عرفتك فصرت أرثي لهم وأعلم أن لله حكمةً فيهم كما قال في كتابه: «ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً».

وكانت سلاّمة ساكنة تستمع إليه في خشوع كأنها تصغي لقارئ يرتل آيات الله. وسكت عبد الرحمن قليلاً ثم تنهّد وقال: «ولكن الناس يقولون فسق القَسُّ وشغفته جارية ابن سهيل حبّاً».

فقالت سلاّمة: «دعهم يقولون ما يشاؤون، فوالله يا بن أبي عمار إنك لطاهر شديد المخافة من الله».

فقال عبد الرحمن بصوت حزين: «أجلْ يا سلاّمة، وهذا سرٌ شقائي».

وصمت عبد الرحمن برهة طويلة ثم أخذ يحرك شفتيه كأنه يعدُّ حديثاً، فقالت له سلاّمة: «ماذا تجمجم[34] يا عبد الرحمن؟».

قال: «إنها أبيات هجمت على خاطري».

قالت: «أسمعنيها».

فوضع يده على جبينه كأنه يستعين بذلك على استرجاع شيء نسيه، وأنشأ يقول:

هَوَاكِ يَقَارِعُ التّقوى بقَلْبي
فَأَشْهَدُ فيْه حَرْبَهُمَا سِجَالا
وَهلْ في الأَرْض أَشْقَى مِنْ مُحبّ
يَذُوْبُ هَوًى وَلا يَرْجُو نَوَالا؟
ألا يَا لَيْتَ رَبّي إذْ هَدَاني
إلَى تَقْوَاهُ جَنّبَني الضّلالا!
وإلاْ فَلْيُرِحْني مِنْ صَلاحي
فَإنّيْ قَدْ لَقِيْتُ به النّكَالا
سَتَأتِيْني الْمَنِيّةُ حِيْنَ تَأتي
وتُسْلِمُني إلَى رَبّي تَعَالى
وَمَا في الْقَلْب يَا سَلاّمُ رَجْوَى
سِوَاكِ وَأنْ تَكُوْني لِيْ حَلالا

فطربت سلاّمة وهبّت قائلة: «قيدها.. سآتيك بالدواة والقلم». وناولته العود الذي في يدها قائلة: «أمسك هذا». وخرجت من المشربة منطلقة في خفة الغزال، فشيعها عبد الرحمن ببصره وهو يقول: «تبارك الله أحسن الخالقين!».

وأخذ ينظر إلى العود ويقلّبه في يده ويقول: «ويل لك يا مزمار الشيطان، لربّما تهدى إلى عبادة الرحمن!.

الفصل العاشر

لم يهدأ عبد الرحمن بقيّة يومه ذاك، فقد خرج من دار ابن سهيل، فقصد المسجد فصلّى الظهر، ورجع إلى بيته لينام القيلولة كعادته يستعين بها على القيام ليلاً للصلاة وللتعبُّد، فاضطجع على فراشه وتقلّب من جنب إلى جنب، وستر وجهه بطرف ردائه يحجب عن عينيه الضوءَ لعلّهما تغفوان، ولكنهما ظلّتا حيتين قلقتين ما تكادان تفلتان من سيطرة الإغماض حتى يرتفع جفناهما فإذا هما مفتوحتان، فكأنّ جفنيهما قد شدّا بخيوط وثيقة إلى قلبه الخافق المضطرب، وفكره الهائم في أودية الأحلام.

فكر عبد الرحمن فيما حدَثَ له صبيحةَ يومه وفي موقفه من سلاّمة، فحمد الله على أن نجا من فتنة الشيطان وكيده، ولولا عصمة الله له ولطفه به لوقع في الإثم، فما كان بينه وبين أن يزلّ إلا أن يلينَ قلبه قليلاً فتطغى عليه شهوته، فإذا هو من الهالكين.

وتمثّلت له سلاّمة وهي تقول وقد احَمَرّ وجهُها وفترت عيناها: «يا عبد الرحمن إني أحبك». فيقول لها هو: «وأنا والله يا سلاّمة أحبك». فتقول له: «وأشتهي أن أضع فمي على فمك». فيقول لها هو: «وأنا أيضاً أشتهي ذلك».

فثاب عبد الرحمن إلى نفسه وجعل يكرر هذه الكلمة، وأنا أيضاً أشتهي ذلك، ويقول: «ويل لي! أإشتهيت أن أضع فمي على فمها؟ أإشتهيت الحرام؟ أإشتهيت الفسوق والإثم، أهذا أنت يا عبد الرحمن؟ أوَ قد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ حتى تقول لجارية لا حقّ لك فيها إنك تشتهي أن تضع فمك على فمها؟ ماذا تركت للشيطان بعد هذا؟ وماذا تخشى من الإثم والفسوق بعده؟ سبحان الله، كيف وقع هذا منه ولم ينفطر قلبه ندماً على ما فرّط في جنب الله، ولم تبكِ عيناه دماً؟ لقد كان حسبه أن يمر ما دون هذا بخاطره ليقشعرّ جسمُهُ من خوف الله، ويخجل من الوقوف أمامه للصلاة، فكيف به وقد نطق به بلسانه، وذهب عقب ذلك إلى المسجد الحرام ليمثل أمام ربه عند بيته المحرّم، كأنْ لم يأتِ أمراً إذاً؟

ورجع عبد الرحمن إلى ماضيه، يحنُّ إلى تلك الأيام الصافية إذ كان فيها خالي البال راضي النفس مستريح الفكر، ينام مطمئنّاً ويقوم من نومه مطمئناً، ويقضي نهاره في المسجد يذكر الله أو يتلو القرآن أو يشهد مجالس العلم، معرضاً عن الدنيا، صادقاً عن باطلها وغرورها، سالياً همومها، مبتعداً عن مدارج الفتن ومسالك الغواية، تاركاً بعض ما يحلُّ له من الطيبات خشية أن يقع فيما لا يحلُّ له، يجالس العلماءَ والصالحين، لا يعرف أرباب النعمة والثراء، ولا مُحبّي اللهو والغناء، وما كان يعرف من العود إلا اسمه، ومن الغناء إلا أنه لَهْوٌ يُشغلُ عن ذكرِ الله، ومن الشعر إلاّ أنه لَغْوٌ من القول لا يليق بالمُتّقين.

فما عدا ممّا بدا؟ وما باله اليوم يقعد على الزرابي الوثيرة، ويطأ على الطنافس الثمينة، ويُنادم ابن سهيل على الغناء والشعر، ويجلس عنده إلَى قينة جميلة فاتنة يرى محاسنها، ويستمع لحديثها، ويستمتع بغنائها وتطريبها؟ حتى سلبت لبّه وشغفته حبّاً، فأبدلته بأنسه همّاً، وبفراغه شغلاً، وبالسلامة خطراً وفتنة. يا ليته كان استمع لنصح صاحبه الشيخ أبي الوفاءِ وعمل برأيه، فقد كان أعرفَ منه بمكامن الخطر ومراتع الغيّ ومداخل الشيطان ومخارجه، إذ نصحه أن لا يعرّض تقواه للتجارب متّكلاً على صمودها لهجمات الهوى، وثباتها في معارض الفتون لعلمه أن النفس أمارة بالسوء، وأن ملاك التقوى الابتعاد عن مواطن الشر والفرار من أماكن الريبة، وأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ولكنه خالف هذا الشيخ الصالح الذي اجتهد بكل ما أوتي من قوة أن يصرفه عن هذا السبيل المحفوف بالخطر، لا يبتغي بذلك إلا الخير له، فلم يصغِ إليه، وآثر جانب الهوى على جانب التقوى متعلّلاً بأنه يجد من دينه وفقهه ما يعصمه عن ارتكاب الزلّة، وينأى به عن الريبة. ومن رأيه وحسن تصرفه ما يصلح من أمره ويخرج به من ورطته، ويجعل من ذلك الحبّ العارض سبباً إلى الزواج الثابت، كأن الزواج لا يحسن إلا بالقينات[35]، أو كأنّ القينات أصلح لذلك من الحرائر، أو كأن الزوجة لا تكمل إلا إذا أحسنت مُنادمةَ الرجال وحذقت فنون الغناءِ وأجادت الضرب على المعازف. أجل لقد ظلم هو أبا الوفاءِ إذ جزاه على نصحه القطيعة والهجران وهو يعلم حبه له، وأنسه به، وافتقاره إليه في حاله تلك من العجز والكبر والمرض، مهما انتحل لنفسه في ذلك من المعاذير، وتكلّف تبرير موقفه منه بأنه إنما فعل ليريح الشيخ من جدال لا غناء فيه، ويكفيه مشقة الإلحاح عليه بالكفِّ عما لا يستطيع الكفّ عنه.

وانتقل فكر عبد الرحمن إلى سلاّمة، وتمثلها مرةً أخرى وهي تدنو منه وتراوده عن نفسه في أول خلوة جمعتهما في غيبة مولاها الكريم الذي أحسن إليها، وأنزلها من نفسه منْزلة الْمُحَبّ المُكرّم، فثار ثائره عليها، وأخذ يسائل نفسه: هل تصلح جارية كهذه تخون مولاها الذي أحسن إليها هذا الإحسان كله، أن تكون زوجة له يأتمنها على شرفه في مشهده ومغيبه؟ نعمْ إنه لم يزلّ بها ولم يجبها إلى ما دعتْه إليه، فَسَلِم بذلك عِرضُها، ونجَتْ من الإثم الكبير، ولكنْ ما فَضلُها في هذا؟ إنها قد دعتْه لو أجابَها لزلّتْ، فكأنها بهذا قد زلّتْ. أم يغفر لها هذا لأنها ارتكبتْه معه ولم تأته مع غيره، وهو من دينه وتقواه في منعة من الإثم وعصمة من المنكر. كلا إن هذا لا يغيّرُ من سلوكها شيئاً، ولا يجعل من مُنْكرَها معروفاً. فحسبه أنه أجنبي عنها وأنها دعتْ هذا الأجنبي إلى ما لا يحلُّ لها أن تدعوه إليه، وحسبه أنها جارية لرجل وأنها خانت ذلك الرجل. ويلٌ له: أفي سبيل هذه الجارية باع راحته وطمأنينته، وعرّض نفسه للتّهم والأقاويل، وقطع أسباب الصلة بينه وبين أصحابه الصلحاء؟

وقف عبد الرحمن يتأمل هذا التحوّل العظيم في حياته، والفرق الشاسع بين ماضيه وحاضره، فانتهى به هذا التأمّل إلى ذلك اليوم الذي فيه ليعود أبا الوفاءِ فسمع في طريقه ذلك الصوت الجميل من دار ابن سهيل فملك لبّه، فكان ذلك الغناءُ أصْلَ ما جاءَ بعده من البلاءِ. ثم عاد عبد الرحمن فسأل نفسه: «ما ذنبه فيما حدث؟ أفي الحقِّ أن يُلامَ على أن ذهب لزيارة صديق له فسمع في طريقه صوتاً فتنه فاستوقفه على غير قصد منه، فاهتبلها صاحب الدار غرة[36] نفذ منها إليه وملك بها مذهبه عليه واضطره بذلك إلى دخول منزله فكان ما كان. أكان في وسعه أن يهرب من هذا القضاءِ الذي حمّ عليه؟ لو أن ذلك كان في إمكانه لقد كان. ألم يعصم نفسه بالتقوى لما راودته سلاّمة عن نفسه؟ ألم يعصِ فيها الهوى حين أشرف به على الهلاك الأكبر؟ ألم يَدُسْ على الشهوة التي كانت تتأجج في صدره مخافة ربه؟ بلى إنه فعل ذلك لأن ذلك كان فيما يملك. أمّا افتتانه بجمال صوتها وغرامه بها فكانا فيما لا يملك، فحرٍ ألا يؤاخذه الله به وأن يتجاوز له عنه.

ثم ما هذه المحنةُ التي بلي بها؟ أشرٌ أريد

به أم أراد به ربه رشداً؟ أحقٌّ أن ماضيه خير من حاضره؟ أليس من الجائز أن يكون حاضره خيراً من ماضيه؟ ليوازِنْ بينهما في شيء ليرى أيها الراجح. كان في ماضيه خالي البال راضي النفس مستريح الفكر. فما خلوّ البال؟ أليس معنى من معاني الخواءِ والتعطّل؟ وما رِضى النفس؟ أليس مظهراً من مظاهر إخلادهما إلى ما هي فيه من النقص ووقوفها عن الحركة الدائبة إلى الكمال؟ وما راحة الفكر؟ أليس قصورَهُ وعجزه عن أداءِ ما خُلق له من السّبْحِ في عجائب الخلق وآيات الخالق؟

كان في ماضيه يخشى اللـه ويتقيه، ويبكي في صلاته وقيامه، فهل ذهبتْ عنه خشيةُ اللـه وتقواه؟ أليست خشيته اليوم وقد حفّت به الشهوات وتبرّجَت له الدنيا أعظم من خشيته أمس حين لم يكن في متَقَلّب عيشه ما يخشى اللـه فيه؟ وهل رقأ[٣٧] دمعه إذا أجنّهُ الليل وقام في سكونه يناجي اللـه؟ أليس بكاؤه اليوم أغزر من بكائه أمس؟ ألم يَصِرْ قلبه أرقّ وحنينه أصدق وشعوره أعمق؟

وكان زاهداً في الدنيا مُعْرِضَاً عن باطلها وغرورها، ولكنْ أين زُهدٌ من زهد؟ أين زهد الخبير بالدنيا المتمرس بآفاتها، من زهد الجاهل بها البعيد عنها؟ هو اليوم يغشى السوق ويشتغل بالتجارة ويتّقي اللـه في ذلك كله، فأنّى يكون له فضلُ الأمانة والصدق في المعاملة لو لم يقع فيما وقع فيه؟

أما مجالسته لأصحاب اللـهو والغناءِ فلم يتصل منهم إلا بابن سهيل. وابنُ سهيل رجلٌ سريٌّ طروب، ولكنه على طربه مُتعفِّفٌ عامر القلب بالإيمان، قوّام بالصلاة لا يكاد يتخلّف يوماً عن شهود الجماعة في المسجد. وإذا ما هلّ شهر رمضان انقطع عن اللـهو وتفرّغ للعبادة والصدقة، حتى إذا كان العشرُ الأواخر منه لزِم المسجد واعتكف فيه بياض نهاره، وأحيا لياليها صلاة وقرآنا. وهو بعدُ عطوفٌ على فقراءِ مكة وذوي الحاجة من أهلها ينفق عليهم في السرّ أكثر مما ينفق عليهم علانية.

والغناءُ الذي أغرمَ به عبد الرحمن ما هو وما أثره فيه؟ ألم يفدْ منه ترقيقاً لقلبه وتلطيفاً لحسه؟ ألم يقتبس منه تلك اللوعة التي يقوم بها للصلاة، فإذا به يشعر كأنه روحٌ قد عُتِقَتْ من رِقّ الجسد، وارتفعت عن الأرض فهامت في السماءِ واتصلت بالملأ الأعلى؟ ألم يأخذ عنه تلك الروعة التي يقرأ بها القرآن فإذا عوالمُ من المعاني تتكشف لقلبه، وإذا أبواب من المعرفة وألوان من الشعور وأطياف من الفكر، وإذا الكون كتابٌ يُتلى، وإذا النظامُ الذي تقومُ عليه السماوات والأرضون لحنٌ أزليٌّ خالد؟

واستمرّ عبد الرحمن على هذا النحو يوازن بين حاضره وماضيه فيجدُ الرجحان لحاضره، أو يميل قلبه إلى ترجيحه فيصدقه عقله، فأحس عند ذلك بطمأنينة تنزل في قلبه، وشعرَ كأنّ شيئاً نفيساً أوشك أن يضيعَ منه فاستردّه، وعاد له خيال سلاّمة باسمةً متطلقة كما رآها لأول مرة، فحنّ إليها، واستيقظت أمانيه، وطفقت أحلامه تتراقص في عينه!

ولكنه تذكّرَ ذنبها غداةَ اليوم فاشمأزّ منها وأشاح بوجهه عن خيالها. ولكنّ خاطراً في قلبه انتدب للدفاع عنها دونه من حيثُ لا يشعر هو، فعرض عليه صورتها وهي تقول له: «يا عبد الرحمن إني أحبك» فيجيبها هو بمثل قولها، فتقول له: «وأشتهي أن أضع فمي على فمك» فيقول لها مثل ما قالت، فتقول له: «ما يمنعك فواللـه إن المكان لخال؟». فيذكرها هو بشهود اللـه، فتكفّ وتبكي ندماً واستغفاراً. فماذا في هذا؟ أفي الحق أن يكون ذنبها فيه أعظم من ذنبه؟ أليس هو الذي دفعها إلى هذا الموقف إذ ألهب شعورها بشعره، وأثار كامِنَ وجدها برقيق غزله، وفتنها بما أودع في أبياته من روحه؟ وقد كانت أحبته، فاعترفت له به، وقالت له وقال لها، فلما ذكرها اللـه تذكّرتْ وندمتْ على ما كان منها. أفيحقُّ له أن يطالبها بأكثر من هذا الذي صنعته؟ إنها كغيرها ليست معصومة من الذنب وقد أذنبتْ فاستغفرت. ومن يدري لعلّ اللـه غفر لها ذنبها فيما دعته إليه من الإثم، ولم يغفر له ذنبه فيما فَتَنَها وحملها على ما صنعت. أفيغفر لنفسه إذاً ما لم يغفر اللـه من ذنبه

ويؤاخذها بما غفر اللـه من ذنبها؟ إنّ هذا إذاً لَظُلمٌ عظيم.

وأفاق عبد الرحمن من أحلامه هذه حين ذكر صلاة العصر؛ فنهض ونظر في الظلِّ فعرف أن وقتها قد حان أو كاد، فقام فتوضأ وأخذ زينته وخرج من بيته يقصد المسجد، وقد اعتزم في نفسه أمراً، وصمّم على أن يسعى في بيع ضيعته بالوادي فيقدّم ثمنها لابن سهيل ليبيع سلاّمة، ويستأنيه فيما يبقى عليه من الثمن ليقضيه له أقساطاً يجمعها مما يعود عليه من عمله في التجارة، وابن سهيل قد عرض عليه سلاّمة ليهبها له فلَنْ يعز عليه أن يجيبه إلى هذا الطلب، ويقبل منه هذه التسوية على علاّتها.

انقطع عبد الرحمن بضعة أيام عن زيارة ابن سهيل كان في خلالها مجتهداً في السعي لبيع ضيعته، حتى ذهب إليه ذات عشية، وكانت الشمس قد مالت للغروب، واكتست الدنيا حُلّةً ذهبية من الأصيل كأنها تقول لعبد الرحمن وهو يرى لون الذهب في كلِّ شيء تقع عينه عليه: «ما أقلّ ما تحملُ من هذا في صرّتك!».

خفّ ابن سهيل وانطلق فَرِحاً لما استُؤذِن لعبد الرحمن عليه بعد غيبة أيام رآها أطول من حقيقتها، لما حدث له فيها من أمور كبيرة جعلته يودع عهداً ويستقبل عهداً، فما إن رأى عبد الرحمن حتى عانقه عناقاً حاراً عجب له عبد الرحمن إذ لم يألفْ من صديقه مثل هذا من قبل، ولم تكن المدّة التي غابها من الطول بحيث تقتضي مثل هذه التحية البالغة عند اللقاءِ، ولكنه لم يسعه إلا أن جامل صديقه فقابل عناقه بعناق

مثله. ولو أن ابن سهيل نظر في عيني عبد الرحمن إذ ذاك لرأى فيها دلائل الاستغراب والتساؤل، ولكنه كان من الشوق واللـهفة للقاءِ عبد الرحمن بحيث لم تكن له معهما فرصة لملاحظة ما تتركه تحيته من الأثر في صديقه، فقد اندفع في ذلك اندفاع الشقيق لقي شقيقه بعد غيبة حلّتْ في أثنائها كارثة بأحد يعزّ عليهما، فاعتنقا متواسيين! وسأله ابن سهيل عن سبب انقطاعه عن زيارته؟

فأجابه عبد الرحمن قائلاً: «كنت مشغولاً يا بن سهيل». فسأله ابن سهيل سؤال العاتب: «أي شغل يا عبد الرحمن؟». فقال له: «بعت مالي الذي ورثته عن أبي بالوادي». فعجب ابن سهيل ولم يفهم ماذا حمل صديقه على بيع ضيعته التي يعيش منها، فقال وقد أخذته الدهشة: «بعته؟» فقال عبد الرحمن والخجل يعقد لسانه: «نعم.. وهذا ثمنه أتيتك به». وأشار إلى صرّة وضعها أمامه: «فهل لك أن تبيعني سلاّمة يا بن سهيل؟».

فشعر ابن سهيل كأن خنجراً شكّ في صدره، فتحامل على نفسه من الألم، فقد شعر في تلك اللحظة بعظم المحنة التي نزلت به من الحجر على أمواله، حين رأى عبد الرحمن وقد باع ماله وأتاه يستعين في سلاّمة فلم يقدِرْ على أن يحقق له أمله؛ ولكنه تجلّد واصطنع الهدوء وقال: «أبيعك سلاّمة؟ كيف يا عبد الرحمن؟.. إنها قد بيعت أمس لرجل من المدينة من آل رمَّانة وسيتسلمها عشية غد» فانتفض عبد الرحمن وقال غاضباً – وكأنه لم يصدق ما سمع: «أوَ قد فعلْتها يا بن سهيل؟».

فأجابه ابن سهيل بلهجة تسيل حناناً ورقة: «لست أنا الذي بعتُها يا بن أبي عمار، وإنما باعها عني القاضي.. لعلك لم تعلم أنهم حجروا عليّ حجر تفليس، وقوّموا كلّ ما أملك، حتى هذا القصر الذي أسكنه، ليُقسم على دَائنِيّ». وتوقّفَ هنيهة ثم قال: «ولقد توسّلتُ إليهم أن يتركوا لي سلاّمة، فلم يفعلوا».

فوجم عبد الرحمن لحظة ذهب فيها فكره كلّ مذهب. ثم قال: «أليس في وسعك أن تحمل القاضي على أن يبيعها لي؟».

فقال ابن سهيل: «لا أحسب الرجل المدني يا عبد الرحمن يتنازل عن صفقته، فهو من عشاق الغناءِ، وقد سمع بأنها تجيده، فأغلى ثمنها حتى دفع فيها تسعمائة دينار، فكم عندك من المال؟».

فأجابه عبد الرحمن بصوت خافض: «مائتان وخمسون ديناراً».

قال ابن سهيل: «يا ليتك يا عبد الرحمن قبلْتها هبةً مني حين عرضتها عليك!».

فتنهّدَ عبد الرحمن قائلاً: «ليت ذلك كان. والله ما منعني من قبول ذلك إلا أنك كريم، وقد بلغني أنك قد وقعت في ضيق، فلم أشأ أنْ أرزأك في مالك، والله إني لأحبُّها حُبّاً فالقاً كبدي، وما منعني أن أشكو بثّي إليك إلا حيائي منك».

فاغرورقت عينا ابن سهيل بالدمع وقال: «إن لهذه الجارية نفاسة عندي، وقد رأيتُ كلفك بها وكلفها بك فأحببت أن أوْثرك بها على نفسي؛ ولا أكتمك يا عبد الرحمن أني قد كنت أشعر أنه سيحجرون عليّ يوماً ما، ولكني ما كنت أظن أن الحجر سيمضي عليّ بهذه السرعة، ولو قد علمت ذلك لأعتقتُ رقبتها فلا يجدون إليها سبيلاً.»

فبكى عبد الرحمن وقال بصوت تخنقُهُ العبرة: «ما أدري والله يا بن سهيل أأبكي لمصابي أم أبكي لمصابك».

فقال ابن سهيل وقد مسح دمعة كبيرة تدحرجت على خده، وتظاهر بالجَلَد والشدة: «خفض عليك يا عبد الرحمن، فسيعجل الله لك من العسر يسراً. إني أكبر سِنّاً منك وقد بلوت من هذا الأمر ما بلوت، فوجدتُ أن لكل شيء نهاية.. حتى هذا الحب الذي يفلق الكبد، ويحرق حجاب القلب، نهايته السلوان».

فقال عبد الرحمن وقد ظهرت عليه دلائل العزم: «لقد علمت أني لن أسلوها ما حييتُ، ولكني سأعتصم بالصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. فهل لك أن تجيبني إلى رجاءٍ لا يثقل عليك إن شاء الله؟».

قال ابن سهيل: «اطلب ما شئت فو الله لا أمنعك شيئاً أقدر عليه!». فتناول عبد الرحمن الصرة فقدمها قائلاً: «اقبل هذه مني تستعين بها على بعض شؤونك، حتى يجعل الله لك من ضيقك مخرجاً».

قال ابن سهيل بلهجة حازمة: أما هذا يا عبد الرحمن فلا، إنك أحوج إليها مني».

«كلا يا بن سهيل إني في غِنَىً عنها، فإني أكسب من عملي في السوق ما يزيد على حاجتي».

«منذ كم عملت في السوق يا عبد الرحمن؟».

«منذ عرفتكم يا آل سهيل».

فابتسم ابن سهيل ابتسامة يخلطها الأسى، وقال إنك لأكرم مني يا عبد الرحمن. عرضتُ عليك بعض مالي فامتنعت، أفلا أمتنع أنا وقد عرضتَ عليّ كلّ مالك؟

فتنهد عبد الرحمن قائلاً: «إن الدنيا كلها لا تساوي سلاّمة في عيني».

قال ابن سهيل: «فما الذي منعك من قبولها إذ عرضت عليك؟».

فقال عبد الرحمن وكأنما اقتطعها من قلبه: «الشّقوةُ التي غلبَت عليّ».

سكت ابن سهيل لحظة كأنه يُفكّرُ فيما عرضه عليه عبد الرحمن ثم قال: «لا يا بن أبي عمار، أمسك عليك مالك، فلو قبضته منك لاستحقه الدائنون.. وبعدُ فإني أشكرك وأعرف لك فضلك».

فتأوّه عبد الرحمن وقال: «وارحمتاه لك يا بن سهَيل!».

كان لهذه الكلمة وقعُها عند ابن سهيل، فعادت له رقته وغلب عليه البكاء وهو يقول: «الله لي ولك يا عبد الرحمن! إني والله ما آسف على شيء فاتنِي من هذه الدنيا إلا أن في مكة بيوتاً لأرامل ويتامى لا عائل لهم كنت أنفقُ عليهم، فما أدري والله ماذا يكون حالهم بعدي!».

فقال عبد الرحمن: «ما أكرمَك يا بن سهيل! ما ينبغي لكريم مثلك أن لا يكون عنده مالٌ ينفق منه!».

وأحبّ ابن سهيل أن

يصرف الكلام عن نفسه، وتذكر سلاّمة وقدّر في نفسه أن عبد الرحمن كان يريد السؤال عنها فمنعه الحياءُ: «ألا تحبُّ أن ترى سلاّمة قبل رحيلها يا عبد الرحمن؟».

فخفق قلب عبد الرحمن وقال والحياءُ يعقد لسانه: «بلى يا بن سهيل».

«إذاً فأتنا غداً في الصباح لنتغدّى معاً ونقضي يوماً سعيداً».

وكأن عبد الرحمن استبعد هذا الموعد، فهو يريد أنْ يراها في تلك الساعة، وليس في وسعه أن ينتظر إلى الغد، وخُيّل إليه أن غداً جِدٌ بعيد، وخشي أن تجدّ أمور فتحول دون رؤيتها فقال: «شكراً شك يا بن سهيل، سآتي غداً إن شاء اللـه، ولكن أين سلاّمة الآن؟».

فأجابه ابن سهيل: «أحسبها ذهبت لتودّعَ صواحبها ومعارفها.. أتحِب أن تنتظرَها حتى تعود؟».

فاستحيا عبد الرحمن أن يقول له نعم – وكان بوده ذلك – وتذكر صلاة المغرب فقال: «لا يا بن سهيل، بل تأذن لي بالانصراف».

قال ابن سهيل: «على أن تأتينا غداً».

قال عبد الرحمن: «إن شاء اللـه».

الفصل الحادي عشر

خرج عبد الرحمن من عند ابن سهيل فقصد توّاً إلى المسجد فصلّى المغرب، ثم طاف بالكعبة ما شاء اللـه أن يطوف، وهو في ذلك شارد اللبّ ذاهل الحِس تجيءُ به الخواطر وتذهب، كأنما قد أُلقِيَ منها في بحر لُجّي[38] يتلاطم عُبابه، وتصطخب أمواجه، فهو منها في كبدٍ، ترفعهُ موجة وتهبط به أخرى، ويرى الناس يقومون ويقعدون ويطوفون ويصلون وكأنه يرى أخيلةً تتراقص أمامه، وأشباحاً تضطرب من حوله، ويتصفح وجوههم فينكرها ولا يكاد يعرف فيها وجهاً. ويعود إلى نفسه فيتلمّسُ جسمه كأنه يشكُّ في موقفه ذاك ويريد أن يتبين أحيٌّ هو يضطرب بين الأحياء، أم ميتٌ قد بُعثَ مع الأموات في يوم الحساب!.

نسي عبد الرحمن في ذلك الموقف كلّ شيء، وشكّ في كل شيء، وشعر بالخوف والاستيحاش من كل شيء، فكأنّما خرج من هذا العالم إلى عالم جديد لا صلة له به، ولا عهد له به من قبل. أهذا هو المسجد الحرام الذي كان يغشاه صباحَ مساءَ منذُ عَقلَ نفسه؟ أهذه هي الكعبة التي يصلّي إليها ويطوف بها ويدعو أمامها مراراً كل يوم؟ أهو عبد الرحمن بن أبي عمار الذي لقّبه أهلُ مكة بالقَسّ؟ أفي يقظة هو أم نائمٌ تتلاعب برأسه الأحلام؟ وينظر إلى الصرة التي يحملها معه فلا يدري ما هي ولماذا يحملها ويحتفظ بها؛ ويسمع أذان العشاء فلا يعي منه إلا ما يعيهِ المجهدُ من حديث القوم قد غلبه النعاس بينهم!

وأقيمت الصلاة فقام مع القائمين وصلّى مع المصلّين، ثم خرج من المسجد مع الخارجين، وحملته قدماه من حيث لا يشعر إلى حيث انتهى إلى باب داره، ففتح الباب ثم أغلقه عليه، وصعد إلى غرفته ورمى بنفسه على فراشه فوقع جنبه على الصرّة التي كان يحملها في يده، فأحسّ بألم شديد أيقظه من غمرته، فجعل يبحث عن مصدر الألم فوجد الصرّة فرفعها ونظر إليها مليّاً فتذكر!

تذكر الضيعة وكيف باعها ولمَ باعها، وتذكر سلاّمة وكيف عزّتْ عليه ويئس منها وكان يراها إلى أمس القريب أملاً سهل التحقيق داني المبتغى لوثوقه بكرم ابن سهيل وعطفه عليه وحبه لمساعدته. ولكن ويح ابن سهيل! لقد حُجرَ عليه بالتفليس وبيعت أملاكه وأمواله ولم يبقُوا حتى على قصره الذي يقيم فيه وجاريته التي يؤثرها، فأصبح بعد ذلك الثراءِ الواسع والنعمة السابغة، والموائد المنصوبة للضيوف والمجالس العامرة بالأنس والغناء والندماء من المغنين والشعراء، فقيراً لا يملك أن يسعد صديقاً عزيزاً عليه. أو ينفق على أهل بيتٍ أخنى الزمان عليهم![39]

تذكّرَ عبد الرحمن صديقه ابن سهيل وخفوفه العشية للقائه فرحاً كأنه يستقبله من سفر طويل، فعرف الآن لماذا عانقه ذلك العناق الحار وحيّاه تلك التحية البالغة التي لم يفهم هو ما دعاه إليها، فلم يزد على أن اصطنع تحية مثلها وتكلّفها مجاملة له. ولو قد علم بما كان يعتلج في صدره عند لقائه ذاك، وأنه كان يعلن بذلك شكواه ويستجديه الإسعاد والمواساة، لما وقف منه موقف التعجُّب والتردُّد؛ ولاندفع يعانقه بكل قوة وحرارة.

واستعاد صورة صديقه وهو يذرف تلك الدموع الغالية التي لم يجد بها قبل اليوم قطُّ، فحزّ الأسى في صدره، إذ ذكر أن هذا الصديق لم يبكِ لمصاب نفسه وإنما بكى في المرة الأولى لمصاب عبد الرحمن حين شكا إليه كلفه بسلاّمة، وبكى في المرة الثانية لأولئك الأرامل واليتامى الذين كان يعولهم وينفق عليهم فلا يدري ماذا يكون حالهم بعده. فعجب من صبر صديقه وإيثاره، ومن جزعه هو وأثرته، فشعر باحتقار شديد لنفسه، وازداد إعجاباً بصديقه وإكباراً لمكانه.

والتفت ذهنه إلى موعد الغد فخفق قلبه لذكر سلاّمة، ونهض عن فراشه كأنه يتهيأ للقائها، وطفق يخطر بين أركان الغرفة جيئة وذهاباً كأنه يستبطئ الغد ويريد أن يقطع الزمن الحائل بعدُ بينه وبين رؤية سلاّمة. إنه لن يراها غداً كما كان يراها قبلُ، فهذه آخر رؤيةٍ ربما لا يراها بعدها أبداً. يا ويح قلبه! أيكون الغد آخر عهد بسلاّمة؟ ياللـه؟ ما أعظم أن يتصوّر هذا وأشدّه عليه! كيف يسلو وجهها الجميل؟ وكيف يصبر على الحرمان من سماع صوتها العذب؟ أيقضي بقية حياته لا ينعم فيها بنظر ولا يحظى منها بسماع؟

ويعود فيسلي نفسه بأنه سيراها غداً بعدُ، ويجلس إليها ويسمع صوتها، وهذه نعمة لا تقدّر بثمن ولا يقوم بها شكر. ألم يكن جائزاً أن يغيب يومه ذاك ويوماً آخر عن ابن سهيل فلا يأتي إليه إلا بعد رحيل سلاّمة فلا يودعها ولا يراها أبداً؟ حسبُهُ أن يتصوّر هذا ليوقنَ أنه بخير بعدُ، وأنّ مصيبته لم تصل إلى نهايتها. ومنْ يدري ماذا يأتي به الغد، وإن في يوم واحدٍ لمتنفّساً، فربما تَعنُّ فيه من الشؤون ما يردُّ الأمل إلى اليائس والفرج إلى المكروب؛ ثمّ ماذا يحمله على اليأس من سلاّمة، حتى بعدَ رحيلها إلى المدينة؟ أليس اللـه قادراً على أن يحقق أمله فيها في يوم من الأيام بسبب من الأسباب؟ لعل اللـه يفتح عليه أبواب رزقه، وييسر له الغنى من كسبه، فيبتاعها من مولاها الجديد بما يرضيه من المال.

وما لمع هذه البصيصُ من الأمل في نفس عبد الرحمن حتى احتفل له وعُني به، وما زال به يَغذُوه ويفسح له حتى نما فملأ بالضياء جوانب نفسه. وأحس عند ذلك برغبةٍ ملحّةٍ في التنفيس عن ذاتِ صدره، وارتاح لقول الشعر فقضى حيناً من الليل يعالجه ويتصيّدُه، ويرضى منه ما يرضى ويحذف منه ما يحذف، وهو في خلال ذلك يضطرب بين اليأس والرجاءِ، والانقباض والارتياح، وينتقل من الحاضر إلى الماضي، ومن الماضي إلى الحاضر، يتردّد بينهما وبين المستقبل، ويفكر حيناً في نفسه وحيناً في سلاّمة وحيناً في صديقه ابن سهيل، ولكنّ خيال سلاّمة كان يسيطر على فكره في ذلك كله..

لم ينم عبد الرحمن ليلته هذه بل وصل سُهده بتهجُّده، وبكى في قيامه للصلاة ما شاء اللـه أن يبكي؛ ودعا اللـه ما طاب له من الدعاءِ، ومكث كذلك حتى صاح المؤذن بالفجر.

ولم يكدْ يضحى النهار حتى كان عبد الرحمن جالساً إلى الخوان في دار ابن سهيل، وقد بسطت عليه المائدة فيها أصناف الطعام والفاكهة. وجلس ابن سهيل عن يمينه وسلاّمة أمامهما. وكان أثر السهر بادياً في عيني عبد الرحمن وإن لم يبد عليه أنه متعب. وقد لبست سلاّمة أحسن ثيابها ولكنّ في وجهها شحوباً كأنما نقهت[40] من سقم، وفي حركاتها فتوراً لا عهد لذلك الجسم المرح النشيط به، وهي لا تنظر لوجه عبد الرحمن إلا مسارقة كأنها لا تقوى على قراءة آيات الأسى البادية عليه. ولم يعد لابتسامتها إذا هي ابتسمت – ذلك الإشراق الحيّ الفائض كأنه ذوبٌ من النور يتفجر! حتى نونتاها فارقهما ذلك الرونق والرُّواءُ، فكأنهما نقرتان في أعلى الجبل لفحهما حر الصيف فجفّ ماؤهما الصافي الشم! أما ابن سهيل فكان أمرح الثلاثة، وأطفحهم وجهاً بالبشر، كأن الأيام لم تغير له حالاً، ولم تنل منه منالاً، وكأنه ما زال في غناه ونعمته، فهو يقبل على الطعام بنفس طيبة، ويقدمه لضيفه ويباسطه، ويضاحك جاريته ويمازحها، وهو في ذلك كله يرسلُ نفسه على سجيتها بحيث لا يشعر جليساه أنه يصطنع ذلك أو يتكلّفُه، ولولا ما يساورهما من الحزن ويحزُّ في صدرهما من الألم، لظنّا أنفسهما بمجلس ابن سهيل في يوم من أيامه السالفة.

وانتهوا من الطعام فقال ابن سهيل والصحاف ترفع وهو يبتسم: «أخشى أن تكون المائدة دون ما يقتضيه توديع سلاّمة وضيافة عبد الرحمن!».

فقال عبد الرحمن: «يرحمك اللـه يا بن سهيل، ما كان لك أن تتكلف كل هذا، فأقلُّ من هذا كان يغني».

فقال ابن سهيل: «لا بأس يا عبد الرحمن، إني ألبس لكل حالةٍ لبوسها، وللضرورة أحكام».

فنظرت إليه سلاّمة نظرة مشفقة وقالت: «ملأ اللـه يديك بالخير يا مولاي. لقد كانت موائدك مضرب المثل في مكة!».

فأجابها ابن سهيل قائلاً والابتسامة باقية في ثغره: «نعم كانت كذلك يا سلاّمة. أما اليوم فإني لم أستطع أن أعِدّ مائدة تليق بتوديع جاريتي الأثيرة عندي، الكريمة عليّ».

قالت سلاّمة: «هوّنْ عليك يا مولاي. ستعود أيامك كما كانت إن شاءَ اللـه».

«أجلْ ربما تعود. ولكنك لن تعودي إلينا يا سلاّمة!».

«لا تقل هذا يا مولاي. فمن يدري لعل اللـه أن يعيدني إليك».

فتحرك عبد الرحمن عند سماع هذا وقال: «واللـه لأجتهدنّ في الكسب حتى نستعيدك إلينا

يا سلاّمة، ونعطي آل رُمّانة ما يشتهون من المال!».

فقال ابن سهيل: «إن هذا آخر مجلس لنا معك يا سلاّمة، فلا نكدّرُ صفوهُ بالأسى والتحسّر، فهات عودك وأطربينا بارك الله فيك».

فقامت سلاّمة وهي تمسح الدموع من عينيها، وذهبت تحضر عودها، فلما عادت غنّتْ لهما أغانيَ شتى معظمها من شعر عبد الرحمن، فكانا ربما صاحا من الطرب، وربما بكيا، وربما استعاداها بعض الأبيات لشعورهما أنهما لن يسمعاها بعد ذلك اليوم من فم سلاّمة!.

وفي خلال ذلك أخرج عبد الرحمن صحيفة من جيبه. فلمحها ابن سهيل فقال: «ما هذا يا عبد الرحمن؟ لعلك قلت شعراً جديداً».

قال: «نعم. صنعته البارحة».

فمد إليه ابن سهيل يده قائلاً: «أرنيها». فناوله عبد الرحمن الصحيفة فنظر فيها فابتسم قائلاً: «هذا جميل والله».

ونظرت إليه سلاّمة كأنها تستطلعه ما في الصحيفة وقالت: «أهذا شعر جديد قاله عبد الرحمن؟».

فأجابها ابن سهيل ضاحكاً: «نعم. وفيك أيضاً يا سلاّمة».

فتهلّل وجهها سروراً وقالت: «ألا تقرأه لي يا مولاي؟».

قال ابن سهيل: «بل تقرأه أنت يا عبد الرحمن».

فلم يمتنع عبد الرحمن وأخذ الصحيفة فقرأ.

أَلا قُلْ لِهَذا الْقَلْبِ هَلْ أَنْتَ مُبْصرَ؟
وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلاّمَةَ الْيَوْمَ مُقْصرُ؟
أَلا لَيْتَ أَنّي حِيْنَ صَارَتْ بِها النّوَى
جَلِيْسٌ لسلْمَى كلما رنّ مِزْهرُ!
فَيَا رَاكِباً إمّا بَلَغْتَ لطيبة
وَضمّكَ وَادِيْهَا الأَغَرُّ الْمُنوّرُ
فَخُذْ رَبْوَةً وَاقْرأْ تَحيّةَ عَاشق
لَهُ في مَغَانيْها مِنَ الأنْسِ جؤْذَرُ
أَقُوْلُ لِقَلْبِي كُلّمَا زَادَ خَفْقُهُ
إلامَ يُعَنّيكَ الأَسَى وَالتّذَكّرُ؟
تَصَبّرْ! فَصَاحَ الْقَلْبُ هِبْنِي احْتَمَلْتُهُ
بِصَبْرٍ فَمَا يُجْدِي عَليّ التّصَبّرُ؟
خُذَا الزّادَ يَا عَيْنَيّ مِنْ نُوْرِ وَجْهِهَا
فَمَا لَكُمَا فيه سوى اليوم منظرُ!
غداً تُتْعِبَانِ الْجِيْدَ طُولَ تَلَفُّت
فَيَعْيى وَيَطْغَى الْمَدْمَعُ الْمُتَفجّرُ
تُرِيْدَانِ في وَجْه الْحَبِيْبَةِ نَظْرَةً
وَمِنْ دُوْنِ مَثْوَاها نُجُوْدٌ وأغوُرُ![٤١]

ولم يكد عبد الرحمن يتم الأبيات حتى سال دمعه وعلا نشيجه، فبكى لبكائه ابن سهيل، ورمت سلاّمة عودها وجلست تنتحب.

وبكى الثلاثة أصدق البكاءِ وأحرّه، وكأنما كانوا من أول الأمر بحاجة إلى هذا البكاءِ يفرّجون به عن كربهم الحبيس ولوعتهم الدفينة، ولكنهم ظلوا يُداري بعضهم بعضاً ويكاتمه ما في صدره، ويصطنع الجَلد والصبر إشفاقاً على صاحبيه ورحمة بهما، حتى حصحص[٤٢] الحق وظهر المكتوم، حين نفذ الشعر إلى سرائرهم فهتك عنها الستر وكشف الغطاءَ، وأرى بَعْضها حقيقةَ بعضٍ وقال لها:

«أيتها النفوس المكلومة التي جمعها المصاب، هذا أوان بكائِك فاجتمعي عليه!».

وكان عجباً أن يكون أجلد الثلاثة – ابن سهيل – أشدّهم حينئذ بكاءً، وآخِرَ من رقأ دمعه وانقطع نشيجه، وأن يكون أجزَعهم وهو عبد الرحمن أول من نَهنَه دمعه وأنشأ يواسي صاحبيْه ويسليهما حتى تعزيا وانقطعا عن البكاء.

قال عبد الرحمن فيما قال لسلاّمة: «الا تعملين لهذه الأبيات لحناً؟». فأجابته سلاّمة وهي تُكفكفُ دمعها قائلة: «سأعمل لها يا عبد الرحمن، سأعمل لها».

فقال ابن سهيل: «ولكنا لن نسمعه يا سلاّمة.. إلا أن يرِدَ علينا به أحدُ القادمين من قِبَل المدينة».

قالت سلاّمة: «أترى أهل المدينة يَقدمون بأغانيّ وعندهم أغاني جميلة؟».

فقال ابن سهيل: «وما يدريك يا سلاّمة؟ لعلّك حين تلقين جميلة وتأخذين عنها فنّها، تفوقين عليها فتكونين كبيرة مغنيات المدينة!».

فبدا السرور في وجه سلاّمة حين ذكرت أنها ستلقى جميلة عما قريب فتأخذ عنها الغناءَ، ولكنها عادت فتتذكرت أنْ لا حق لها في أن تبتهج بشيء يبعدها عن مولاها ابن سهيل وحبيبها عبد الرحمن، فاجتهدت أن تخفيَ هذا السرور الطارئ وتصطنع ما كانت فيه منذ الساعة من الأسى.

ولم يفت ابن سهيل ما دار بخلد الجارية فقال لها: «إنك لن تحسّي يا سلاّمة من ألم الفراق ما نحسُّه. لأنك سترحلين إلى طيبة التي طالما اشتقت إليها، وسترين العقيق الجميل وتشهدين به مجالس الغناءِ الممتع، وحسبكِ أن تلقيْ جميلة التي طالما أعجبت بغنائها، ونازعتك نفسك إلى رؤيتها والأخذ عنها. أليس كذلك يا سلاّمة؟».

ولم يَرُقْ هذا القول عبد الرحمن وودّ لو استطاع تكذيبه، كأنه ينكرُ على سلاّمة أن تجد لها ما تتسلى به عنهما في المدينة، ولكنه لم يجد ما يقوله في ذلك فلزم الصمت.

أما سلاّمة فقد شعرتْ بخطئها فيما بدا منها من السرور في موقف لا يجدر بها ذلك فيه؛ فما كان ينبغي لها أن تؤثر محبتها للغناء وكلفها بإجادته على حبِّ البقاء عند مولاها الكريم. ولئن كان ذلك صادراً عن نحيزتها[٤٣] التي لا تقاوم، فعليها على الأقل أن تجتهد في كتمانه فلا ينمّ وجهها عنه في مثل هذا الموقف. ولهذا أجابت مولاها قائلة: «معاذ الله يا مولاي أن يكون فيما ذكرت ما يخفف عني ألم فراقكم. إنما كنتُ أحب أن أرى المدينة وأهلها وأنا في يمينك يا مولاي!».

ولم تكن سلاّمة صادقة كل الصدق فيما قالت، فقد كانت الرغبة الفنية طاغيةً عليها طغياناً قد تشفقُ منه على بعض ما يعز عليها من آمال قلبها، وتخشى أن ينسيها أعزّ ما تصونه من عواطف الحب نحو عبد الرحمن وللأيام التي قضتها في المدينة بين دار أبي الوفاء ودار ابن سهل، فهي تشعر أنها خلقت للغناء، وهي وإن أحبّت عبد الرحمن، وهذا مما لا ريبَ فيه، ولكن أكانت تؤثر حبّه على فنِّها، أم تؤثر فنها عليه؟

في اليوم التالي جاء ابن رمانة، ليصطحب سلامة إلى المدينة، أما ابن سهيل وابن أبن عمار فقد ودّعا سلاّمة على الطريق المؤدي إلى المدينة ورجعا إلى مكة بجسميهما، أمّا قلباهما فقد رحلا مع الركب.

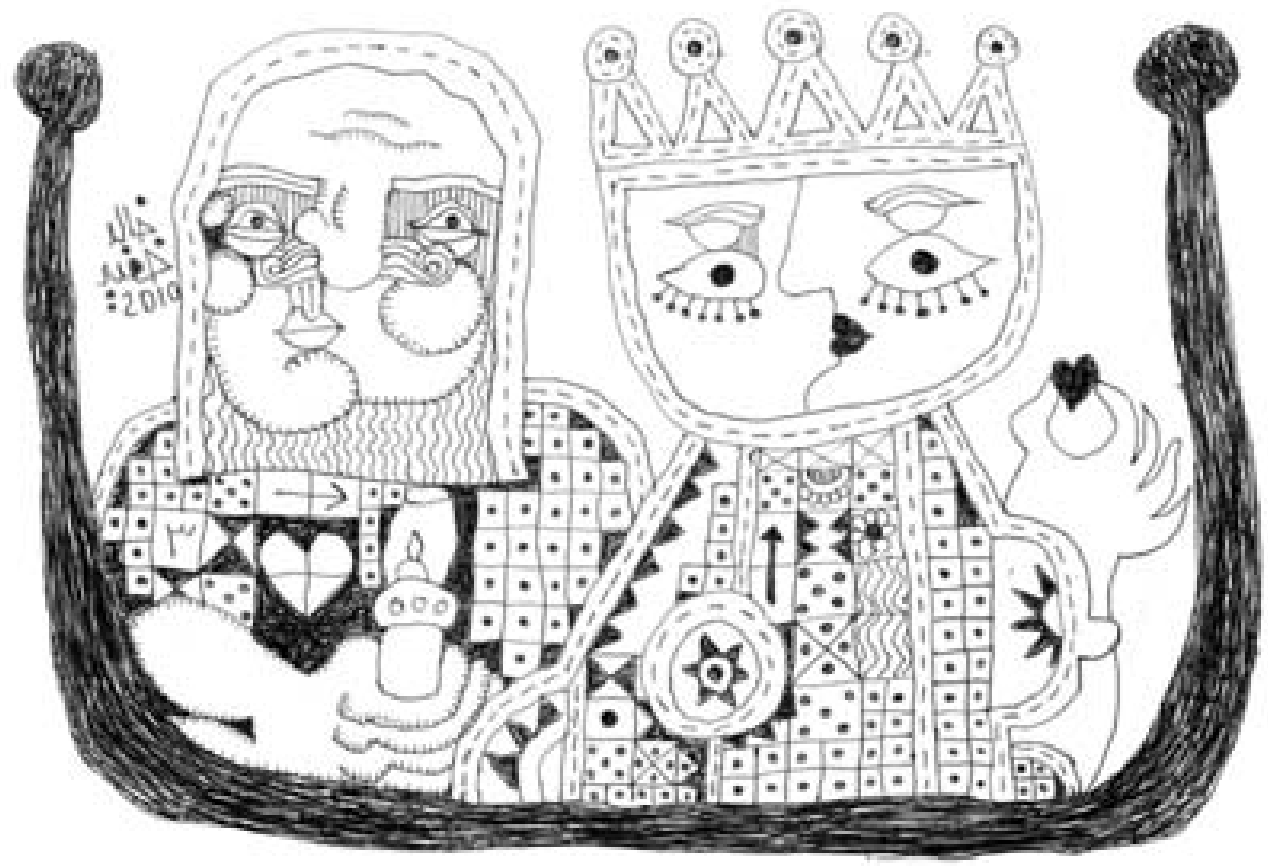

الفصل الثاني عشر

قدمت سلاّمة المدينة واحتواها قصر مولاها الجديد ابن رُمانة، فنزلت عنده منزلاً كريماً ولقيت منه كل بر وعناية. ذلك أنه كان

قد سمع بمكانها في الغناءِ ونبوغها فيه، فلما بلاها وجدها فوق ما سمع، ففرح بها فرحاً عظيماً وأجلّها وعرف لها قدرها، وأعلى منزلتها بين غيرها من جواريه الكثر. وعلّق عليها الآمال الكبار.

وابن رُمّانة هذا رجل جاوز سن الشباب. قضى سنيه الأولى تاجراً يتردّدُ بين المدينة والشام حتى جمع له من ذلك ثروة لا بأس بها. وكان في خلال ذلك مولعاً بالغناء والعزف، وقد اشتغل بهما حتى برع فيهما. وكان مما ساعده على ذلك حسن صوته، وخفة يده، وقوة عزمه، وجلده على العمل. وقد جرّه حبه للكسب إلى أن يتخذ من بصره بالغناء سبباً من أسباب التجارة، فأخذ يبتاع الجواري بأثمان رخيصة فيعلمهن الغناءَ، حتى إذا برعن فيه باعهن بأثمان كبيرة، فربح من عمله هذا مبلغاً كبيراً من المال أغراه بالتوسع فيه والتفرغ له، فهجر لذلك تجارته الأولى. وقد أكسبه طول المران خبرة بالجواري يتوسّمهن فيعرف أيهنّ أصلح للغناء وأرجى أن يتقدمن فيه، فكانت له نظرة صائبة قلّما تخونه في هذا الشأن. وكان يستعين ببعض جواريه اللائي قد تقدمن في الغناءِ وبرعن فيه فيعلمن الجواري الجُدد حتى تقدم عمله، فكان بعد ذلك ربما استعان في تعليمهن ببعض المغنين والمغنيات وجعل لهم على ذلك أجوراً كبيرة، ولاسيما حين يتوسم في بعض جواريه استعداداً كبيراً للنبوغ.

قضت سلاّمة أيامها الأولى في المدينة وقلبها بمكة، خلّفتْه عند مولاها الكريم ابن سهيل، وحبيبها عبد الرحمن بن أبي عمار: فقد ظلّت تذكرهما ليل نهار، وتتصور ابن سهيل وقد رقّ حاله، وفقد ثروته، وأصبح فقيراً معدماً لا يملك حتى داراً يسكنها بعد ذلك الغنى الواسع والنعيم الكبير، وتتمثل عبد الرحمن وقد برح به الوجد، وأضناه السقم، ولم يجد إلى العزاء سبيلا. تذكر هذا كله فإذا قلبها ينفطر من الحزن، وإذا صدرها ضيّق حَرج كأنما يصعّد في السماء، فلا تجد أمامها ملجأً إليه إلا الدموع.

ولم يخْفَ على سيدها الجديد ما هي فيه من الكرب وما تعانيه من الشدة، وكان قد علم بحديثها مع القسّ وغرامها به، إذ استفاضت أخباره بمكة حتى انتهى بعضها إلى المدينة، فرأى من الحكمة أن يعاملها بالرفق، ويأخذها بالحسنى، ويتغاضى عما يبدو منها من ذلك حتى تسلوه من ذات نفسها بمرور الأيام.

وقد أثمرت هذه السياسة الحكيمة الثمرة المطلوبة، إذ ساعدت سلاّمة على السلوان، كما ساعدها على ذلك ما استيقظ من حبها القديم للغناء، وكلفها بالتبريز[44] فيه، فقد رأت مغاني العقيق التي طالما هفا قلبها إليها، وعاشت في جو يختلف عن جو مكة بحسنهِ واعتداله، وبين قوم يختلفون عن أهل مكة برقتهم ودماثتهم واحتفائهم بالغناء، وولعهم به، وتقديرهم لأقطابه ونوابغه.

وكأنما سلاّمة قد خلقت للغناء، وكأنّ في أعماق نفسها صوتاً يحدوها دائماً للنبوغ فيه، ويسوقها إلى بلوغ أعلى درجاته من الكمال. وقد تنزل بها أحداث الدهر، وتلمّ بها شواغل الحياة، فتُخفتُ هذا الصوت في ضميرها حيناً من الزمن لا يلبث بعد انقشاع الغمة أن يعود حيّاً كما كان، أو أقوى مما كان، وقد تبلّغ من هذه الظروف والمحن، واتخذ لنفسه منها زاداً ووقوداً – أنها أحبّت عبد الرحمن، هذا حقٌّ لا ريبَ فيه، ولكن أكانت تؤثر حبّه على فنّها، أم تؤثر فنها عليه؟ هذا موضع للشك، ومن يدري لعلها ما صانت حبّ عبد الرحمن وأعزّته، وأولته جانب الرعاية، وغذّته بآمالها وأحلامها، إلا لأنها وجدت فيه غذاءً شهيّاً لهذا الجنين الشره في أحشائها.. جنين الفنِّ!

وكانت سلاّمة أعرف الناس بقدرها، فما كان الغرور ليجد سبيلاً إلى نفسها فيعميها عن تبيُّن ما فيها من مواضع النقص لتسدّها، كما أنّ تواضعها لم يكن ليصرفها عن الطمع في مقام يؤهلها له استعدادها العظيم. من أجل هذا ما كادت تسكن إلى مولاها الجديد حتى اقترحت عليه أن يبعثها إلى جميلة لتأخذ عنها، وتتدرّبَ على يديها، فصادف هذا الاقتراح هوىً في نفسه. وكان ابن رُمّانة يعرف جميلة ويعجب بفنها، وطالما اختلف إلى مجلسها يستمتع بغنائها حتى اتسع عمله، فحالت بينه وبين ذلك كثرة أشغاله. وهذه فرصة سنحت ليجدِّد بها العهد، ويزورها في منزلها مع سلاّمة جاريته.

وما استأذن عليها ضحىً حتّى فرحت به وأذنت له، وكانت جالسة وبين يديها عدد من الجواري بأعوادهن تدربهن على الغناء، فنهضت له واستقبلته استقبالاً حسناً.

قال لها ابن رُمانة: «كيف أنت يا جميلة؟».

فقالت: «بنعمة الله يا بن رُمانة.. وأين أنت فلم نرك منذ زمان؟».

قال لها: «مشاغل الأيام يا جميلة صرفتنا عن مجالسك الممتعة».

ونظرت إلى سلاّمة فقالت لابن رُمانة: «أهلاً بك وبمن معك.. من هذه التي جئت بها؟».

فأجابها قائلاً: «هذه جاريتي سلاّمة التي اشتريتها حديثاً من مكة.. جئتُ بها إليك لتأخذ عنك فنون الغناء».

فجعلت جميلة تتأمل في وجه سلاّمة ثم قالت: «أهذه سلاّمة القسّ؟».

فاضطربت سلاّمة وبدا التأثر على وجهها، وابتسم ابن رُمانة قائلاً: «أجلْ هي سلاّمة القس».

فقالت جميلة: «مباركة عليك.. لقد ظفرت بجوهرة!».

فسألها ابن رُمانة: «هل كنت عرفتها؟».

فأجابته قائلة: «لقد سمعتُ بعض ألحانها فأعجبتني، وما أحسبها بحاجة بعدُ إلَيّ».

فقالت سلاّمة وقد تضرّج خداها خجلاً: «كلا يا مولاتي إني بعدُ بحاجة إليك، ومن ذا يستغني عنك وما تعلمتُ الغناءَ إلا من ألحانك».

قال ابن رُمانة: «إنها تلميذتك وهي شديدة الإعجاب بك، وما يسرّها شيء في المدينة كما يسرّها أن تراك وتتلقى عنك».

فقالت جميلة وقد ملكها الزهو: «أجل إنها تسير على طريقتي، ولكنها تضيف إليها شيئاً من مذهب غيري. على أني أتوقّع لها مستقبلاً عظيماً في هذه الصنعة».

فشكرتها سلاّمة على حسن رأيها فيها، فقالت جميلة وهي تضحك: «إنك لن تقيمي عندنا طويلاً حتى تتخطفك قصور أميّة بالشام».

وكان لهذه الكلمة وقع شديد عند سلاّمة، إذ أثارت على غرة منها أمنيةً قديمة دفنتها الأيام في نفسها، فشعرتْ بهزّة طرب، وتذكّرتْ في نفس الوقت حبّها لعبد الرحمن، وأن قصور أميّة ستحول بينه وبينها إلى الأبد، فريعتْ لهذا الخاطر فقالت: «لا يا مولاتي، لا أريد بجوار رسول الله بدلاً».

فابتسم ابن رُمانة قائلاً: «إنها تؤثر البقاءَ عندي. أليس كذلك يا سلاّمة؟».

قالت سلاّمة: «بلى يا مولاي».

فقالت جميلة: «ما أرى يزيد بن عبد الملك إلا ضامّكِ إلى قِيانهِ في قصره».

فابتدرها ابن رُمّانة قائلاً: «لا والله لا أبيعها له أبداً».

فضحكت جميلة ضحكة ذات معنى، ونظرت إلى ابن رُمانة قائلة: «هيه يا ابن رُمانة! ما أحسبك زاهداً في ذهب آل مروان!».

أخذت سلاّمة بعد ذلك تختلف إلى جميلة تأخذ عنها أصول الغناء في مدرستها، فأحبتها جميلة وأكبرتها لما رأت فيها من الموهبة الفنية العظيمة، وآثرتها بالعناية على تلميذاتها الأُخَر؛ ولم يمضِ زمنٌ طويل حتى وثقت بقدرتها، وعهدت إليها بتعليمهن بعض الألحان التي أجادتها، فكانت سلاّمة تقوم بذلك خير القيام.

ولكن ظهورها عليهن في هذه المدة الوجيزة، واختيار جميلة إياها رئيسة لهنّ أثارا في أنفسهنّ حسداً لها وغيرةً منها، فأخذْنَ يؤذينها ويتغامزْنَ عليها، ويتندّرنَ بينهن بأحاديث حبّها للقس وغرامها به. فكانت سلاّمة تُعرِض عنهنّ وتترفّع عليهن، فيزيدهنّ ذلك وجداً عليها.

وكانت فيهنّ جارية رائعة الجمال كثيرة الدلِّ سليطة اللسان تُدعى حُبابَة، كانت تترأسهنّ قبل مجيء سلاّمة، فلما فقدت زعامتها شقّ ذلك عليها، فجدّت في مناهضتها وتولّت كِبر الائتمار بها، فكانت تعيّر سلاّمة حيناً بدمامة الوجه، وحيناً بقبح الصوت، وتارةً بمخالفتها لأصول الغناءِ، وكثيراً ما تسمع من سلاّمة ميلاً في لحن من الألحان وخروجاً عن أصله فتأخذ عليها ذلك، وترفع أمره إلى جميلة، وتستشهد زميلاتها على ذلك فيشهدن لها فَبُؤْنَ من جميلة بخيبة المسعى وسوء الرد، إذ تقول لهن: إن ذلك دليل على تفوّق سلاّمة ونزْعتها إلى الابتكار.

وجلست جميلة ذات يوم تلقنهنّ لحناً جديداً فحذِقَتْ سلاّمة قبلهنّ كدأبها على ذلك، فقالت لتلميذاتها: «لَكُنّ الآن أن تأخذن هذا الصوت عن سلاّمة».

فقالت إحداهن: «ليس اليوم يا سيدتي فقد تعبنا».

فضاقت جميلة ذرعاً بهن وقالت: «آه منكن! تردن أن تكنّ مغنيات ولا تصبرن على العمل! لقد كنت في سِنّكنّ فكنت ربما أقطع الليل كله أتدرّبُ على لحن واحد لأحذقه».

فقالت جارية أخرى: «غداً نأخذه عنها».

فنظرت إليها جميلة مغضبة وقالت: «ما أشقاني بكنّ! وما أخيب رجاءَ مَواليكنّ فيكنّ. انصرفْنَ إذا شئتن!».

ثبتت الجواري في مقاعدهنّ وخفّضنَ رؤوسهنّ كأنما أشفقْنَ من غضب جميلة، ثم طفقن ينظر بعضهن إلى بعض، تنظر كلّ واحدة منهنّ أختَها لتقوم قبلها.

ونظرت جميلة إلى سلاّمة وقالت وقد سكت عنها الغضب: «أما إذ كسلتنّ وأبيتنّ التّدريب، فاجلسنَ قليلاً لنسمع إلى سلاّمة».

وابتسمت لسلاّمة قائلةً: «غنينا يا سلاّمة أبيات ابن أبي عمار (ألا قل لهذا القلب)، فإنها تعجبني ولم أسمعها منك منذ زمن».

فقالت سلاّمة: «أعفيني يا سيدتي».

فألَحّتْ عليها جميلة قائلة: «بحياتي

عليك إلا ما غنّيتها لي» فلم تجد سلاّمة بدّاً من إجابتها إلى ما سألت، فأخذت عودها متثاقلة كأنما تدفع لذلك دفعاً، وظلّت برهة واجمة تنظر إلى عودها كأنها تسترجع شيئاً غاب عنها، وأخذ العرق يرفض[٤٥] من جبينها حتى أشفقت عليها جميلة وكادت تعفيها مما سألت، لولا أن رفعت سلاّمة رأسها وقد استنار وجهها وبرقت عيناها، وطفقت تداعب عودها وتغني:

ألا قلْ لِهَذَا الْقَلْبِ هَلْ أَنْتَ مُبْصِرُ؟
وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سلاّمةَ الْيَوْمَ مُقْصِرُ

حتّى إذا بلغت قوله:

خُذَا الزّادَ يَا عَيْنَيَّ مِنْ نُوْرِ وَجْهِهَا
فَمَا لَكُمَا فِيْهِ سِوَى الْيَوْمَ مَنْظَرُ

خنقها النشيج فلم تستطع إتمام الصوت.

فعزّ ذلك على جميلة، وكانت قد اشتدّ طربُها وطارت روحُها في سماء الأحلام، فقالت: «مالك يا سلاّمة؟ استمرّي في غنائك، فو الله إنه لغناءٌ ما سمعت مثله».

فقالت سلاّمة: «لا أستطيع يا خالة». وظلّت تغالب عبْرتَها كأنها تتقي شماتة حواسدها بها حتى أعجزها ذلك، فانفجرت باكية.

فسكتت جميلة مشفقة، وأخذ بعض الجواري يتغامزْنَ بينهنّ، ووجم بعضهنّ كأنما أُخذْنَ بروعة الموقف فاستحال حسدهنّ لسلاّمة عطفاً عليها.

ومرّت ثوانٍ ثم قالت جميلة وقد اقتربت من تلميذتها الباكية: «أإلى هذا الحدّ تحبينه يا سلاّمة؟ ويْحكِ! إن الرجال لأهون من أن تقتلي نفسك في آثارهم أسفاً وإنّ عهدهم لأوهى من بيت العنكبوت».

فقالت سلاّمة وقد رفعت إليها طرفها الغارق في الدمع: «إلا ابن أبي عمار، فو الله يا خالة إنه ليصعّد أنفاسه من حرقة الوجد فكأنما يلفظ كبده فلذةً فلذة، فأحسُّ كأنّ قلبي يُشكُّ بالخناجر!».

قالت جميلة: «إنك ما تعرفين يا بُنية خداع الرجال ومكرهم».

فقالت سلاّمة وقد كفكفت دمعها: «ليس ابن أبي عمار بماكر ولا خداع. إنه بريء كالطفل، حَييٌّ كالعذراء، طاهر كالْمَلَك!».

فابتسمت جميلة ابتسامة يخالطها الحنوُّ والشفقة قائلة: «دعي عنك هذا، فستسلينه وتنسين كلّ ما يتصل به عندما يضمُّك قصر الخليفة بدمشق، فقد بلغني أنه يبعث رسله في شرائك من مولاك».

فريعتْ سلاّمة لذكر الخليفة وقالت: «سيكون ذلك أشقى لحالي، وأتعس لحظي، إذْ يزيد شقة ما بيننا بعداً. ولن يقدر عبد الرحمن بن أبي عمار أن يشتريني بعد ذلك. مسكين عبد الرحمن! إنه يقتل نفسه كدّاً في كسب المال ليقدر على شرائي».

فقالت جميلة في لهجة فيها شيء من الشدّة: ويحك يا مجنونة، أتفضلين أن تقيمي عند رجل فقير يقبرك في كسر بيت في مكة، على أن تعيشي عند الخليفة في قصر عظيم وملك كبير؟».

وكانت حبابة في أثناء ذلك تتحفّز للقول، وإنما سكتت على مضض تنتظر ثُغرةً في الحديث تنفذ منها إليها، وكان قد انتهى إليها أن الخليفة سمع بجمالها وغنائها فبعث رسله في طلبها وكثيراً ما ذكرت ذلك لصواحبها مُدِلّةً معجبة، فما إن سمعت سلاّمة تعلن زهدها في هذا الأمر الكبير لديها حتى رأت الفرصة سانحة للاعتراض عليها. فقالت تخاطبها: «هذا والله جنون منك.. أما أنا فيكون اليوم الذي يضمُّني فيه قصر الخليفة بدمشق أسعد أيام حياتي، وإني لأعدُّ له الأيام». وعزّ على سلاّمة أن تسمع هذا القول من حبابة في مثل هذا الموقف، فقالت لها بازدراء: «ذلك أشبه بك يا حُبابة!».

فاستشاطت حُبابة غضباً وقالت: «ما تعنين بهذا! أتريدينني أن أكون متكلفة مثلك، تصدعين الرؤوس بابن أبي عمّار هذا كأن ليس في الدنيا رجل مثله!».

فقالت سلاّمة وقد تهيأت لمناوأتها ومقابلة عدوانها بمثله: «ليس لك أن تقولي هذا حتى يحبك رجل كابن أبي عمار».

«أف لك. فو الله إن وجهي لأجمل من وجهك هذا الشاحب، وإن صوتي لأعذب من صوتك المبحوح».

فقالت سلاّمة وقد نفد صبرها: «أتسكتين أو...».

فبادرتها حبابة قائلة: «أو ماذا يا سلامةَ القس؟».

قالت سلاّمة: «أو ألطمك!».

فأدارت لها حُبابة خدّها وقالت تتحداها: «هيا ألطمي، أخزاك الله وأخزى ابن أبي عمارك!».

فهمّتْ سلاّمة بلطمها، ولكن جميلة حالت بينها وبين ذلك وقالت: «لا يا سلاّمة لا تفعلي».

والتفتت إلى حُبابة مغضبة وهي تقول: «أهكذا تزعجين سلاّمة يا حبابة؟ أتحسبين نفسك خيراً منها؟ والله لو تعلمت الغناءَ طول عمرك ما بلغت مبلغها».

فقالت حبابة: «إنها هي التي سبّتني».

قالت لها جميلة: «ولكنك كنت البادئة.. أغرّكِ يا هذه أنّ الخليفة بعث في طلبك أيضاً؟ والله لن تفلحي هناك إلا إذا كانت سلاّمة بقربك ترشدك في صناعتك».

فقالت سلاّمة: «والله لا أعلِّمها ولا أرشدُها بعد اليوم».

فأخذت جميلة تترضاها وتقول لها: «بل تعفين عن أختك يا سلاّمة من أجلي أنا». وأشارت لِحُبابة قائلة: «اعتذري إليها أنت». فلم يسع حُبابة إلاّ أن قالت لسلاّمة: «معذرة يا أختي. والله لا أسمعك ما تكرهين أبداً».

الفصل الثالث عشر

لنعد إلى مكة لنرى ماذا فعلت الأيام بابن سهيل وابن أبي عمّار بعد إذْ ودّعا سلاّمة ورجعا إلى مكة بجسميهما، أمّا قلباهما فقد رحلا مع الركب.

رجعا إلى مكة ليستقبل أحدهما حياة الفقر بعد الغنى، والشدة بعد الرخاء، والشقاء بعد ذاك النعيم، وليقضي الآخر أياماً كلها وجد ويأس، وليالي كلُّها سهد ودمع! لقد جمعهما في ظاهر الأمر مصاب واحد وهو فِراقُ تلك المخلوقة التي كانت أنسهما في الحياة، ولكن ما أشدّ اختلاف أثر هذا المصاب في هذين القلبين، أما ابن سهيل فقد شغله همٌّ غيره عن هم نفسه، فجعل وكدهُ[٤٦] تعزية صاحبه عبد الرحمن وتسليته وتعليله بالأماني والأحلام، وسرعان ما اطمأنّ إلى حياته الجديدة واستمرأ[٤٧] مريره كأنما لم تنزل به نكبة فقد فيها كل ما ملكت يده، ولولا ما يُقلق باله مما يرى من أثرها في صديقه عبد الرحمن الذي يبكي بين يديه كالطفل، وما يؤرّقه أحياناً في هدأة الليل حين يذكر أرامل ويتامى وشيوخاً عجزة كان ينفق عليهم بمكة فلا يدري ما حالهم تحت ستار ذاك الظلام، لكان موقفه من مصيبته موقف الحالم يرى في نومه كأنّ مصيبة عظيمة نزلت به، فيستيقظ مرعوباً فلا يرى شيئاً فيحمد الله على أنها لم تكن إلا في المنام!

وأما عبد الرحمن فقد استغرقه همُّه فشلّه عما سواه، وأذهله عما حوله، وانحصر في نفسه، فعاش منها في سجن ضيق لا انطلاق له منه، فشعر كأنه يعيش غريباً في هذه الدنيا لأنّ سلاّمة هي الدنيا عنده رحلت عنه، وكذلك يختلف حبّ المرأة عن حب الخلق، أحدهما ضيق تملؤه الأثرة، والآخر واسع يعمره الإيثار.

تعزى الصديقان بعد فترة من الزمن واندملت جراحهما الدامية، فإنّ للأيام يداً تمسح كما أن لها يداً تجرح، وعاد الأمل إلى قلب عبد الرحمن، وكان معظم الفضل في هذا يرجع إلى ابن سهيل فقد استطاع أن يفيض من عزائه على قلب صديقه، وكان في أول الأمر عزاءً سلبياً ولكنه ما لبث أن صار في قلب الشاب المحب عزاءً إيجابياً، ثم صار أملاً ثم تحول الأمل عزماً، ثم تحوّل العزم إلى عمل.

لقد عرف عبد الرحمن السوق من قبل واشتغل بالسمسرة فيه فربح، فلمَ لا يعود إلى عمله ويجتهد فيه حتى يجمع من المال ما يستطيع أن يغوي ابن رُمّانة فيبيع له سلاّمة؟ عنده ثمن الضيعة التي باعها فلمَ لا يشتغل بالتجارة ويستثمرها وبالكسب؟ ولم لا يشترك مع ابن سهيل في هذا العمل؟

ولم يعرف ابن سهيل الصفْق في الأسواق من قبلُ. ولم يسبق له بالتجارة عهد؛ فقد ولد وفي مهد النعمة ونشأ في بحبوحة اليسار، فكأنما خلق في الدنيا لينفق لا ليكسب. ولم يكن نادماً على ما أضاع من الدنيا فقد كان يراها عرضاً زائلاً، فقضى لبانته منها إذ كانت مقبلة، فلم يأْسف عليها حين أدبرت. وقد بقيت له صُبابةٌ من المال يستطيع أن يعيش بها قانعاً بقية حياته، فعلام يكدح ويتعب في الأسواق ويتكلف من ذلك ما لا يحسنه؟ ولكنه تذكّرَ صديقه الشاب الصالح وحبّهُ لسلاّمة وأمله في قربها، فعزَّ عليه أن يدعوه لمساعدته في الوصول إلى أمله فلا يعينه بكل ما يقدر عليه.

ورأى الناس ابن سهيل وابن أبي عمار يعملان في السوق ويضطربان فيه، فربما مرّ بهما من كان يعرفهما منهم فسبّح الله وعجب من تقلّب الأيام.

ومرّ عامٌ ونصف قضياه في العمل الجاد المتواصل يحدوهما فيه أملٌ واحد يبسم لهما في وجه سلاّمة! وكانا كثيراً ما جلسا من الليل يتسامران ويستعيدان ذكريات الأيام الماضية فيضحكان حيناً، ويأْسيان حيناً، ويفترقان على العزم لمضاعفة الجهاد ومواصلة العمل.

وكانا في خلال ذلك يتسقطان أنباءَ سلاّمة من الواردين عليهما من المدينة، ويتلقيان ما تسير به الركبان من أغانيها. ولم ينسيا يوماً لقِيا فيه وارداً من المدينة وكان من محبّي الغناء، فأنشدهما اللحن الذي صنعته سلاّمة في أبيات ابن أبي عمار «ألا قل لهذا القلب»، فكاذا من طرب يذوبان!

وبارك الله في تجارتهما فجمعا من المال ما حسباه كافياً لإرضاء ابن رمانة، فعقدا العزم على السفر إلى المدينة؛ وما هي إلا أيام حتى رؤيا يخفقان على ذلولين[٤٨] في ركبٍ مجد يضرب في الصحراء نحو طيبة! وكان عبد الرحمن لا يمر

برابية أو ماءٍ أو حِلةٍ من الحلل أو علَمٍ من أعلام الطريق إلا خفق قلبه، وقال في نفسه: «لقد رأت هذا عينا سلاّمة!».

وإذْ لم يبق دون المدينة إلا يوم واحد اعتزلا الركب وانفردا عنه بذلوليهما يستعجلان الطريق. ولاحت لهما معالم المدينة فلم يملكا دمعهما فرحاً. واستيقظت فيهما ذكريات الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وجهادهم في سبيل اللـه حتى ظهر دينه على الدين كلّه.

وأقبل أحُدٌ يتهلّل! فتهلّل قلباهما له؛ وروى ابن سهيل لصديقه قوله عليه الصلاة والسلام في أحُد: «هذا جبل يحبُنَا ونُحبُهُ!».

فأخذت عبد الرحمن سَوْرةٌ من الطرب كأنه لم يسمع هذا الحديث إلا تلك الساعة من ابن سهيل، وما كان الأمر كذلك، وإنما أثار الحديث ساعتئذ في نفس عبد الرحمن شيئاً لم يكن يثيره من قبل فخاله جديداً عليه وليس بجديد. فقد شعر عبد الرحمن في تلك الساعة كأن أحُداً ليس جبلاً من صخر أصمّ، ولكنه مخلوق حيٌّ يتنفس ويشعر... ويحب!.

ذكر عبد الرحمن الحب فذكر سلاّمة، ونظر إلى الجبل الحبيب فودّ لو استطاع فاحتضنه! وجاشت نفسه بصور من المعاني وعاها قلبه وقصّرَ عنها عقله ولسانه. هذا جبل يحنو على المدينة ويرعاها كأن اللـه أقامه ليحرسها، وفي المدينة محمدٌ حبيب اللـه وحبيب المسلمين، وفي المدينة شخص آخر يحب عبد الرحمن ويحبه عبد الرحمن... «فيا أيها الجبل الحاني على المدينة ما أحناك علينا! وما أحبنا إليك وأحبك إلينا!!».

وأخذا يسيران على مهل بين النخيل والزروع في ضاحية المدينة، كالمشفقين على ذلك الطريق الوادع بين الماء والظلِّ أن يقصر أمده، أو كالمتهيبين داخل مدينة الرسول.

حتى إذا أشرفا على الديار خفق قلباهما ونظر كلاهما إلى الآخر كأنه يقول له: «ها نحن أولاءِ قد وصلنا».

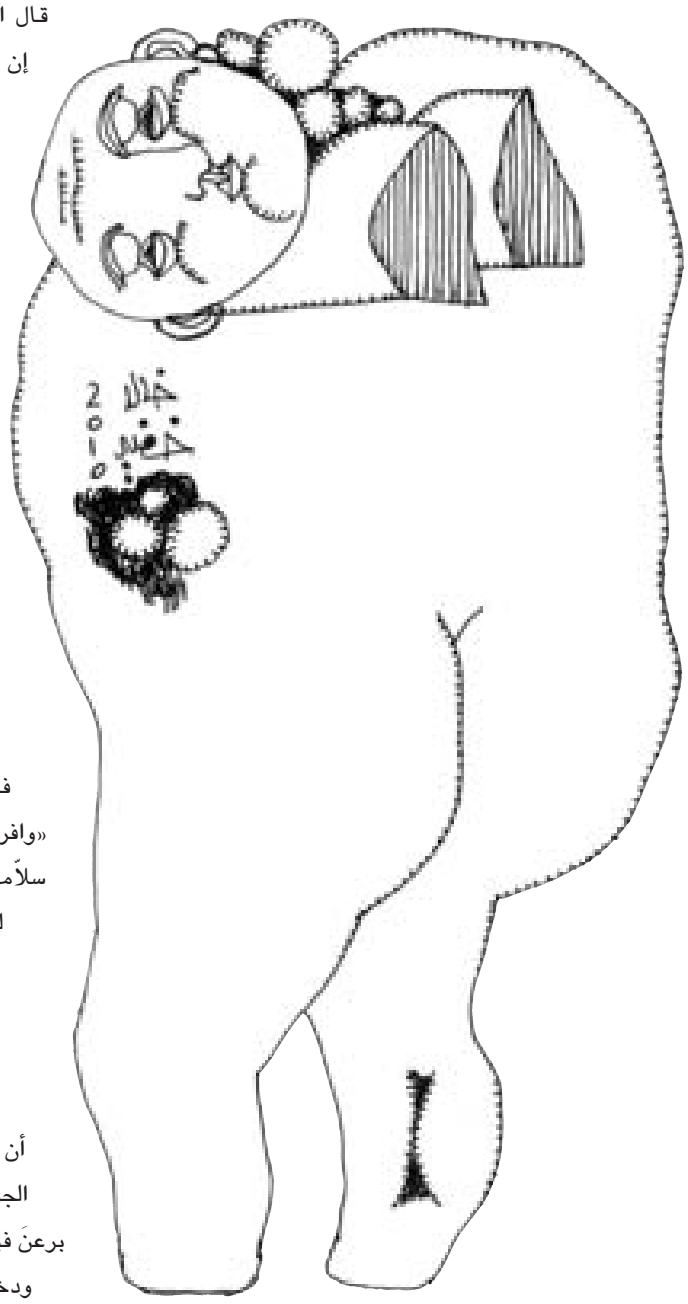

قال ابن سهيل: «ما أجمل المدينة! إن القادم إليها ليحسّ لها بشاشة وأنساً».

فقال ابن أبي عمار: «صدقت يا بن سهيل، ولكني لا أدري لماذا أراها اليوم آنس مما كنت أراها من قبل».

فابتسم ابن سهيل وقال له: «ألأنّ فيها سلاّمة؟».

فسكتَ عبد الرحمن هنيهة ثم أشار إلى الجانب الغربي من المدينة وقال: «إني أجد نفسها من هذا الجانب!».

قال ابن سهيل: «أبشرْ يا عبدَ الرحمن فسنراها قريباً».

فاندفع عبدُ الرحمن يقول: «وافرحتاه! ليت شعري أتعود إلينا سلاّمة؟ أيرضى مولاها أن يبيعها لنا؟».

فقال ابن سهيل: لمَ لا؟ نحن عارضون عليه ضعف المال الذي اشتراها منا به؟ وقد بلغني أن من دأب هذا الرجل أن يشتري الجواري فيعلمهنّ الغناءَ حتى إذا برعنَ فيه باعهنّ بأثمان كبيرة».

ودخلا باب المدينة وأخذا يجولان في شوارعها حتى وقفا على دار ابن أبي عتيق، فنزلا عن ذلوليهما واستأذنا عليه، فخرج لهما رجلٌ كهلٌ حسن الهيئة، فما إن رأى ابن سهيل حتى اندفع إليه يعانقه قائلاً: «أهلاً يا بنَ سهيل، مرحباً بالصديق الكريم!». ثم صافح عبد الرحمن وقال لابن سهيل: «من هذا الشريف الذي معك؟». فقال ابن سهيل: «هذا صديقي عبد الرحمن بن أبي عمّار».

قال ابن أبي عتيق: «القسّ؟.. أهلاً بك وبه.. هيا بنا إلى المنزل».

فقال ابن سهيل: «ما نريد أن نثقل عليك يا بن أبي عتيق».

قال ابن أبي عتيق: «لا واللـه لا تَنْزلان إلا عندي».

قال ابن سهيل: «شكراً يا بن أبي عتيق.. ألا تدلّنا على دار ابن رمانة».

قال ابن عتيق: «لعلكما تريدان أن تريا سلاّمة؟».

قال ابن سهيل: «هو ذاك».

فقال ابن أبي عتيق: «إذن نذهب معاً لسماعها في مجلسها بعد العصر».

فاعترض ابن سهيل قائلاً: «ولكنا لم نُدْعَ إلى هذا المجلس فلن نحضره».

فقال ابن أبي عتيق: «إنه مجلس يحضره من شاءَ من أهل المدينة بغير دعوة».

قال ابن سهيل: «كيف ذاك؟».

فأجابه ابن أبي عتيق قائلاً: «إن ابن رمانة رجل تاجر يحب المال، فهو يعقد لجاريته مجلساً كل أسبوع يحضره من يشاء ليشتهر أمرها، فيبيعها لمن يُغلي له الثمن».

فخفق قلب عبد الرحمن عند سماع هذا، وبرقت أسارير وجهه ولم يتمالك أن قال: «إذن فهو يريد بيعها؟».

قال ابن أبي عتيق: «لا شكّ.. وهذا أسلوبه في التجارة..».

ونظر إلى ابن سهيل قائلاً: «كأني بك جئت تسترجعها يا بن سهيل».

قال ابن سهيل: «ذلك ما جئنا مِنْ أجله».

فعزّ هذا على ابن أبي عتيق، إذ كان قد سمع بما بعث الخليفة لشراءِ سلاّمة، ولكنه آثر أن لا يفاجئ صديقه بهذا النبأ، وأن يتركه حتى يعلمَ ذلك بنفسه من ابن رُمانة؛ فقال: «أما واللـه إنها لجوهرة لا تصلح إلا لك».

قال ابن سهيل: «الا نذهب إليه الآن لنكلّمَهُ في شأنها؟».

قال ابن أبي عتيق: «ليس الآن.. حتى تستريحا وتزيلا عنكما غبار السفر، فإذا كان العصر شهدتما مجلسها فقابلتما ابن رُمانة».

قال ابن سهيل: «ولكن لا نريد أن يعرفنا أحدٌ في المجلس».

قال ابن أبي عتيق: «لكما عليّ ذلك فاعتمدا عليّ».

وأمر ابن أبي عتيق غلمانه بإدخال خرجيهما والعناية براحلتيهما، ودخل بهما المنزل، فتغديا عنده، وصلّيا الظهر واستراحا، حتى إذا كان العصر اغتسلا وخرجا مع ابن أبي عتيق إلى المسجد، فشهدوا الجماعة، ثم خرجوا يقصدون دار ابن رُمانة.

وأشرفوا عليها فإذا دارٌ كبيرة تحيط بها حديقة غَنّاءُ، وإذا فناءٌ واسع تحت الدار قد نُصبَ في وسطه حجابٌ كثيف يجلس في جانب منه الرِّجال، وفي الجانب الآخر النساءُ يأتين إليه من باب خاص بهنّ.

كانت سلاّمة قاعدة على كرسي موضوع بين الجانبين بحيث يراها الرجال والنساءُ، وعليها حلّة لازوردية، وأمامها منضدة تضع عليها العود والشراب. وكان الناس قد دخلوا أفواجاً فقعدوا على الأرض المفروشة بالطنافس، وغصّ المكانُ بالحاضرين ولاسيما جانب الرجال.

وبدأت سلاّمة تعالج عودَها وتشدُّ ما ارتخى من أوتاره.

وكانت امرأة تقول لأخرى جاءَت وجلست بجانبها: «أهلاً بك يا عافية. ما جاء بك؟ إني لم أرك هنا قبل اليوم».

فأجابتها صاحبتها بلهجة شاكية: «لا تسليني يا خديجة.. جاءَ بي هنا ما جاءَ بك.. لقد تزوّجَ بَعْلِيْ امرأةً أخرى وهجرني، فجئت أتسلى بغناءِ سلاّمة!».

فقالت المرأة الأولى: «أيهجرك بعد ذلك الحبِّ كله؟».

فتنهّدت صاحبتها وقالت: «هذه قسمتي يا خديجة».

وكان رجل من الحاضرين يكلم صاحبه ويقول له: «حقاً واللـه إن سلاّمة لنعمة من اللـه على أهل طيبة.. إنها تسلّي همومهم وأحزانهم».

فقال له صاحبه: «لكنها لن تدوم لنا.. لقد بلغني أن رُسلَ يزيد بن عبد الملك قد جاؤوا لشرائها من ابن رُمانة».

فقال الرجل: «لا حقّقَ اللـه ما تقول».

قال صاحبه: «إني سمعتُ ذلك من بعض الرجال الذين لهم صلة وثيقة بابن رُمانة».

وكانت سلامة قد بدأت تغني، فسكت الناس كأنما على رؤوسهم الطير يستمعون إليها وهي تقول:

ألا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ هَلْ أَنْتَ مُبْصِرٌ
وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلاَمَةَ الْيَوْمَ مُقْصِرُ
ألا لَيْتَ أنّي حِيْنَ صَارَتْ بِهَا النّوَى
جَلِيْسٌ لِسَلْمَى كُلَمَا عَجَّ مُزْهِرُ

ودخل ابن عتيق وصاحباه في تلك اللحظة فجلسوا في أخريات الناس، وذلك عندما كانت سلاّمة تقول:

فَيَا رَاكِباً إمّا بَلَغْتَ لِطَيْبَة
وَضَمَكَ وَادِيْهَا الأغَرُ الْمُنَوَرُ
فَخُذْ رَبْوَةَ وَاقْرَأْ تَحِيَةَ عَاشِقٍ
لَهُ فِي مَغَانِيْهَا مِنَ الأنْسِ جِؤْذَرُ

فهمس ابن سهيل لعبد الرحمن قائلاً: «إنها أبياتها يا قسّ».

فقال عبد الرحمن: «بأبي هي وأمي!».

فأسرّ إليهما ابن أبي عتيق قائلاً: «إنها مولعةٌ بهذه الأبيات تغنّيها دائماً، وهي أحبُ أغانيها إلى أهل المدينة».

وغنّتْ سلاّمة وقد خالط صوتها البكاءُ:

أَقُوْلُ لِقَلْبِيْ كُلَمَا زَادَ خَفْقُه
إلامَ يُعَنّيْكَ الأسَىْ وَالتّذَكُرُ؟
تَصَبَرْ! فَصَاحَ الْقَلْبُ هَبْنِي احْتَمَلْتُهُ
بِصَبْرٍ فَمَا يُجْدِيْ عَلَيّ التّصَبّرُ؟

فطفق النساءُ يبكين وتعالى النحيب من جانبهن.

وغلب عبد الرحمن الوجد حتى كاد يغشى عليه، فأخذ ابن سهيل يسنده أن يقع على الأرض وهو يقول له همساً: «تشدّدْ يا عبد الرحمن ولا تفضحنا في الناس، إنهم بدؤوا ينظرون إلينا».

وغنّت سلاّمة بصوت قد براه الشّجى فكاد يبيد:

خُذَا الزّادَ يَا عَيْنَيّ مِنْ نُوْرِ وَجْهِهَا
فَمَا لَكُمَا فِيْهِ سِوَى الْيَوْمَ مَنْظَرُ
غداً تُتعِبَانِ الْجِيْدَ طُوْلَ تَلَفُتٍ
فَيُعْيِيْ وَيَطْغَى الْمَدْمعُ الْمُتَفَجّرُ
تُرِيْدَانِ فِي وَجْهِ الْحَبِيْبَةِ نَظْرَةً
وَمِنْ دُوْنِ مَثْوَاها نُجُوْدٌ وأغْوُرُ

ولم يقْوَ عبدُ الرحمن على احتمال ما به، فشهق شهقة لفتت أبصار الناس إليه وهو يبكي ويترنّح، وقد ثقل على ساعد ابن سهيل حتى كاد يرضّه، واحمرّ وجهه، وجحظتْ عيناه، وأخذتا تميلان إلى مصدر الصوت. فما إن أعادت سلاّمة قوله:

خُذَا الزّادَ يَا عَيْنَيّ مِنْ نُوْرِ وَجْهِهَا
فَمَا لَكُمَا فِيْهِ سِوَى الْيَوْمَ مَنْظَرُ

حتى استوى على ركبتيه متطاولاً وجعل يحدّقُ في وجه سلاّمة وعيناه زائغتان، فلحظته سلاّمة فعرفت وجهه، وعرفت ابن سهيل إلى جانبه، والتقت عيناه بعينيها فوقع عبد الرحمن على الأرض مغشياً عليه.

فقال ابن سهيل: «أعنّي يا بن أبي عتيق لنحمله إلى المنزل».

فنهض ابن أبي عتيق مع ابن سهيل فحملا صديقهما الشاب وخرجا به والناس ينظرون إليهما.

وتغيّر وجه سلاّمة وارتعشتْ أطرافها، وأحسّت كأن الأرض تدور بها، فأشفقت أن يراها الناس كذلك أو يُغْشَى عليها في النديّ[4]، فقامت عن كرسيها ودخلت باب الدار مسرعة.

واضطرب المجلس وسأل الناس بعضهم بعضاً عن الحادث حتى ارتفع اللغط.

ورَوّى صاحب الدار يجري مُنطلقاً في أثر ابن أبي عتيق وابن سهيل حتى أدركهما عند باب الحديقة، فاستوقفهما وقال لهما: «هلمّا به إلى الدار لنعالجه».

فأجابه ابن أبي عتيق قائلاً: «سنعالجه في دارنا».

فتشبّث بهما ابن رُمانة قائلاً: «لا والله لا أدعكما تخرجان به من هنا فيقضي في الطريق».

فما كان منهما إلا أن نزلا على رأيه، فقادهما إلى الدار من طريق آخر.

وانفضّ الناس مُنصرفين، وأخذ الرجال يخرجون من بابهم والنساءُ من بابهنّ وهم يتساءلون عن الحادث، ويروي بعضهم لبعض ما رآه أو سمعه.

«إنه القَسُّ عاشق سلاّمة».

«القَسُّ الذي سُمّيتْ سلاّمة به».

«نعم هو».

«ويحه ما أتعس حاله!».

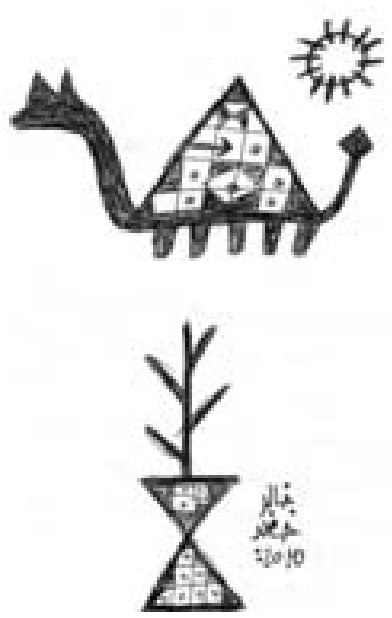

«أما رأيت سلاّمة كيف اضطربت لما رأته؟».

«نعم إنها هي الأخرى تحبه!».

أُخِذَ عبد الرحمن بن أبي عمار إلى حجرة واسعة في دار ابن رمانة فوضعَ على سرير أُعِدّ له، وقامت على رأسه سلاّمة تعالجه وترشُ ماء الورد على وجهه.

ووقف ابن رُمانة وابن أبي عتيق وابن سهيل في ركن من الغرفة يتحدّثون بصوت خافض، فيشكر ابن سهيل لصاحب الدار كرمه وبرّهُ، ثم يذكر له ما قدم المدينة من أجله، فيعلن إليه ابن رمانة أسفه ويخبره بأن سلاّمة قد أصبحت في ملك يزيد بن عبد الملك، وأن رُسلَهُ سيحملونها وشيكاً إليه، وأن سلاّمة في انتظارهم ليعيّنوا موعد السفر.

وكان ابن سهيل يسمع حديث صاحب الدار وهو لا يكاد يتماسك من الجزع والأسف، ولا يدري كيف يكون وقع هذا النبإ في نفس عبد الرحمن.

وكانت سلاّمة في خلال ذلك تسمع ما يدور بينهم من الحديث؛ فكان الدّمعُ يتساقط من عينيها، وما منعها أن تُعْوِلَ بالبكاء إلا مكان حبيبها الفاقد وعيه على الفراش وهي تجتهد في تنبيهه وإنعاشه. وأفرغت قربتين من الماء البارد على رأسه فتحرك وفتح عينيه، فصاحت سلاّمة: «الحمد لله لقد أفاق من غشيته».

فدنا الثلاثة من السرير وقد بدا على وجوههم السرور يحمدون الله على نجاة صاحبهم.

فلما وقع نظر عبد الرحمن عليها قال بصوت مرتعش: «سلاّمة!».

فأجابته سلاّمة: «نعم يا عبد الرحمن.. أنا هي أمامك».

وأحسّ عبد الرحمن بخفة فأراد القعود، فأعانه ابن سهيل حتى إذا استوى قاعداً قال: «هيا يا سلاّمة نرجع إلى مكة!».

والتفت إلى ابن سهيل قائلاً: «هل كلّمت مولاها في أمرها يا بن سهيل؟».

فلم يجبه ابن سهيل بشيء؛ والتفت عبد الرحمن إلى سلاّمة فرآها تبكي فسألها: «ما يبكيك يا سلاّمة؟». فلم تجبه بغير البكاء، فصاح عبد الرحمن قائلاً:

«أخبروني ماذا حدث.. يابن سهيل ماذا حدث؟».

فتولّى ابن أبي عتيق جواب عبد الرحمن فقال: «تجلّدْ يا بن أبي عمار.. إن سلاّمة قد بيعت ليزيد بن عبد الملك».

فنظر إليه عبد الرحمن ذاهلاً: وقال: «بيعت ليزيد بن عبد الملك!».

فأجابه ابن أبي عتيق: «نعم للخليفة، فاصبر يا بني وفوّض أمرك إلى الله».

قال عبد الرحمن: «أين ابن رُمانة، أين مولى سلاّمة؟».

فقال ابن رمانة: «ها أنا ذا هو يا بن أبي عمار».

فقال له عبد الرحمن: «لا يا بن رمانة لا تبعها ليزيد.. بعها لنا، نحن أولى بها منه».

فقال ابن أبي عتيق: «إن الخليفة دفع فيها عشرين ألف دينار يا ابن أبي عمار».

فقال عبد الرحمن: «عشرين ألف دينار؟».

قال ابن سهيل: «نعم عشرين ألف دينار، وليس معنا إلا ألف وثمانمائة دينار».

فقال عبد الرحمن: «سلاّمة أغلى من ذلك.. إن الدنيا كلّها لا تكفي ثمناً لها. أمهلنا يا بن رمانة سنأتيك بأكثر من عشرين ألف دينار. سنأتيك بما تريد».

فأجابه ابن رمانة: «إنها خرجت من ملكي إلى ملك الخليفة، ولو أنكم جئتم قبل ذلك لآثرتكم بها وقبلتُ منكم ما عندكم».

فكبر على عبد الرحمن الخطب فلم يجد شيئاً يقوله، وبقي صامتاً برهة من الزمن كأنه يحاور نفسه ويقول لها: «إلامَ تطمعين في شيء لم يشأ الله أن يكون».

ورأى ابن سهيل أن قد حان وقتُ انصرافهم من بيت ابن رمانة، فقد استفاق عبد الرحمن وذهب عنه السوءُ، فأومأ لابن أبي عتيق بذلك، ففهم ابن أبي عتيق ما أراد وقال: «نشكرك يا بن رُمانة على برّكَ ومعروفك، وإنا نرى أن تأذن لنا فننصرف».

فقال ابن رُمانة: «إنكم لم تذوقوا عندنا شيئاً بعدُ، فلا تنصرفوا حتى نصنع لكم طعاماً».

فقال ابن سهيل: «ليس بنا الليلة نَفَسٌ لطعام، وحسبنا ما لقينا من فضلك وتكرمتك».

فقال ابن رمانة: «إنكم أحبّاءُ سلاّمة ومواليها، وإن لسلاّمة لمكانة عندي. ولن أدعكم تنصرفون حتى تعدوني بأن تقبلوا ضيافتي غداً».

فقال ابن سهيل – وقد فهم من عيني سلاّمة أنها تترجاه أن لا يرفض دعوة مولاها: «إذا أَذِنَ ابن أبي عتيق فإننا نقبل».

فقال ابن أبي عتيق: «ليس لي أن أستأثر بكم دون ابن رُمانة».

وتهيئوا للانصراف، فنهض عبد الرحمن ونظر إلى سلاّمة فرأى ابتسامة خفيفة على ثغرها كأنما تقول له: «غداً سأراك».

الخاتمة

أثارت رؤية عبد الرحمن وابن سهيل وجداً قد دفنته الأيام في نفس سلاّمة حتى كادت أن تسلوه، فقد كانت تطمع في قربهما منذ علمت أنهما يشتغلان بالكسب ليجمعا مالاً يستردانها به، فعاشت دهراً على هذا الأمل. ولما علمت بأن الخليفة قد بعث رُسُلَهُ في شرائها، وأن مولاها لن يرغب عن المال الذي يعرضونه عليه فيها، حزنت لذلك وأيقنت أن لا أملَ لها في الرجوع إلى مكة، فوطّنت نفسها على الرِّضى بما ليس لها منه بد، وأخذت تحيي في نفسها ما كانت تحلم به في أيامها الأولى من البلوغ إلى قمة الشهرة بسطوع نجمها في قصور الخلافة بدمشق، تريد بهذا أن تخفف عنها بعض المصاب. ولكن شاءَت الأقدار أن تنكأ الجرح المندمل في قلبها، إذ بعثت حبيبيها القديمين ليستردّاها إليهما في اليوم الذي كانت تتأهب للرحيل في غده مع رُسل الخليفة إلى الشام، حين لم يبق في استردادها مطمع.. يا ليتهما جاءَا قبل ذلك، وإلا فليتهما لم يجيئا أبداً.

وكانت قد أنست إلى أهل المدينة لما رأت من حبِّهم لها، وتقديرهم لفنها، مما زهدها في الشام وقصور الشام، وجعلها تؤثر البقاءَ في الحجاز وإن يئست من قرب حبيبها فيه، فكيف وقد قدم هذا الحبيب وأوشك أن يحوزها وتحوزه لولا كتابٌ سبق!

ودنت ساعة الفراق، واشتدت رغبتها في البقاء بالمدينة ولو أياماً معدودة تتملّى فيها برؤية حبيبها العبقريّ، وتتزوّد من لقائه للسفر الطويل.

فرجت إلى مولاها – وكانت تعرف أنه يعزها ويكبرها – أن يكلِّمَ رُسل الخليفة في تأجيل سفرها ثلاثة أيام أو يومين.

فقال ابن رُمانة: «ما أحسبهم يرضَوْن بذلك يا سلاّمة».

قالت له: «قل لهم إنك تهيئون لي ما يلزمني من الثياب والحلي».

فأجابها إلى ما سألت، ولكن الرسل رفضوا تأجيل السفر. قال لهم: «إنكم قادمون بها على الخليفة، فأمهلونا ثلاثة أيام أو يومين لنجهزها بما يشبهها من الثياب والحلي والطيب».

فقالوا له: «هذا كله معنا قد أعددناه، فلا حاجة بنا إلى شيء منه».

قال لهم: «أمهلونا إذاً يوماً واحداً لتودِّع صواحبها ومعارفها».

فقالوا: «ليس عندنا إذن بذلك، وقد أمرنا بالرحيل غداً، فلن نتأخر غداً لحظة».

أما عبد الرحمن ابن أبي عمار فقد قضاها ليلة نابغية[٥٠] في دار ابن أبي عتيق، كأنما جُمِعَتْ فيها آلام حياته كلها ما قرُب منها وما بعُد، فحشى بها صدره جملة واحدة!

انفضّ السامر في الدار وأوى كلٌّ إلى مرقده، حتى إذا غفت الجفون تسلّل عبد الرحمن من جانب صديقه ابن سهيل فصعد السطح، فانتبذ منه ركناً لا تراه فيه العيون إلاّ عيناً واحدة لا تنام!

وكانت ليلةً قرّةً[٥١] يمرق فيها البرد إلى العظم، وكان جسم عبد الرحمن يرتعد من شدته، والندى يتساقط عليه، ولا يكسوه إلا قميص خفيف. ولكنه لم يشعر بذلك كأنما كان في منعة منه بشواظ النار التي تَتَسعّر في صدره.

وأخذ يناجي الله ويبكي، ويركع ويسجد، ويقوم ويقعد، ويدعو الله ويرجوه، ويشكو إليه ويستغفره، ويسأله اللطف فيما قضى، ويستلهمه الرشد والهدى، ويستعيذ به من غلبة الهوى وفتنة الشيطان.

نسي عبد الرحمن في هذا الموقف كل شيء.. إلا سلاّمة، وقد عزّت عليه في الدنيا فطمع أن تكون له في الآخرة، ودعا الله دعوة هفا لها قلبه، واقشعرّ بدنه، ونظر إلى السماءِ فرأى نوراً أضاءَها لحظة فاختفى وسُمِعَ صوتٌ كأنه صدى يترجّع في الشعاب «آمين!».

فاطمأن عبد الرحمن وشعر كأن قِربةً باردة أفرغت على النار في صدره فخبتْ! وتدفّق الحمد من فِيهِ كأنما كان عليه صمام فانطلق، ورقأ دمعه إلا بقية عالقة بأهدابه تلمع في ضوء النجوم!

ولم يلبث أن شعر بالبرد في جسمه والبلل في ثوبه، فبرح السطح ورجع إلى مكانه حيث وجد ابن سهيل يغط في نومه، فاستبدل بقميصه قميصاً، واندسّ تحت لحافه فنام.

ثم دخل ابن أبي عتيق على صاحبيه فأيقظهما، فتطهروا للصلاة وشهدوا الجماعة في المسجد.

وعجب ابن سهيل إذ رأى صديقه القَسّ نشطاً طيب النفس على غير ما توقعه منه: وقال لابن أبي عتيق في ذلك فشاركه العجب ونصحه أن لا يقول له شيئاً فيهيجه.

وأجيبت دعوة ابن رُمانة حين متع[٥٢] الضحى فحفلت داره بأحباب سلاّمة ضيوفاً أعزاءَ بولغ في إكرامهم وإيناسهم، فمدّ لهم السماط، وقدّمت ألوان الطعام والفاكهة، وحُيوا بالريحان ونضحوا بماءِ الورد، وأديرت عليهم مجامر العود والند.

وأسر ابن أبي عتيق إلى ابن رمانة يقترح عليه أن يدعو عبد الرحمن للقاءِ سلاّمة في مكان منفرد، لعله يريد أن يقول لها شيئاً، ولعلّها ترغب أن تفضي إليه بشيء قبل رحيلها، فقال ابن رُمانة: «حبّاً وكرامة».

فكانت يداً لابن أبي عتيق ظل الحبيبان يذكرانها ما عاشا.

وخلا الحبيبان فحيا كلاهما الآخر تحية أفصح عنها القلب حين قصر اللسان، ومرّت لحظات غالية من الزمن قضياها في صمت يتكلم!

وكانت سلاّمة بطبيعة الأنثى فيها أحرص من صاحبها على نفيس الوقت، فبدأت الحديث تقول: «ما بال عينيك حمراوين يا عبد الرحمن؟ ألم تنم البارحة؟».

فنظر عبد الرحمن في عينيها وقال: «تسأليننى عن عَيْنَيّ.. وعيناك يا سلاّمة؟».

فقالت سلاّمة: «هذه قسمتنا يا بن أبي عمار».

قال عبد الرحمن: «نعم هذه قسمتنا يا سلاّمة.. على أنه لا ينبغي لك أن تجزعي.. إنك ذاهبة إلى قصور أميّة، وواجدة فيها ما يسلّيك وينسيك مسكيناً مثلي.. أما أنا..». وغلبه البكاءُ دون إتمام جملته.

فقالت سلاّمة: «أتظنُّ قصور أميّة تنسيني إياك؟ لا والله يا بن أبي عمار، لأنت أحسن حالاً مني. إنك تلجأ في عبادة ربك بجوار الكعبة فتجد في مناجاة ربك عزاءً عني وعن كلِّ شيء في هذه الدنيا الفانية، أما أنا فليس لي وجه أقابل الله به».

«فيم يا سلاّمة؟ ألست تصومين الفرض؟».

«بلى يا عبد الرحمن».

«وتصلين الخمس؟».

«أصلي حيناً وأترك حيناً».

«لا يا سلاّمة لا.. إني لن أتركك حتى تعاهديني على أن لا تتركي صلاةً منذ اليوم.. ألست تحبينني يا سلاّمة؟».

«بلى يا عبد الرحمن إني أحبك».

«أما تحبين أن تكوني لي وأكون لك؟».

«تلك الأمنيّة يا عبد الرحمن. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد اشتراني الخليفة فانقطع كل أمل في صيرورتي إليك؟».

فقال عبد الرحمن والدمع يترقرق في عينيه: «أجل انقطع كل أمل في صيرورتك إليّ في هذه الحياة الدنيا، أما في الحياة الأخرى فإن الأمل باقٍ يا سلاّمة، وإنه لأملٌ كبير!».

فقالت سلاّمة: «ولكنْ أنّى لقيْنة مثلي تنفق ساعاتها في مجالس الغناءِ والشراب أن تأمل في الحياة الأخرى؟».

قال لها عبد الرحمن: «أما الشراب ففي وسعك أن تكفِّي عنه. وأما الغناءُ فأنت محمولة عليه وهو صناعتك، وأرجو أنْ لا حرج عليك فيه إذا أنت حافظت على صلاتك وصيامك، وعصمت نفسك بالتقوى، حتى يجعل الله لك منه مخرجاً. وسأستغفر الله لك وأتصدّقُ عنك بكل ما يفضل من كسبي، وسأجتهد في عبادة ربي عسى أن لا أكو بعبادة ربي شقيّاً».

قالت له سلاّمة: «ما أطيب قلبك يا عبد الرحمن وأسمى روحك! وما أجدرك أن يستجيب الله لك. والله لأمتنعنّ عن الشراب وأحافظنّ على الصلاة والصوم، وأعصمنّ نفسي بالتقوى، ولأصّدّقنّ بكلِّ ما تصل إليه يدي، والله يغفر لي ما دون ذلك».

فقال عبد الرحمن وقد استنار وجهه: «إفعلي يا سلاّمة، واجعلي ذلك آية بقائك على عهدي».

قالت له سلاّمة: «اطمئن يا عبد الرحمن من قبلي، فو الله

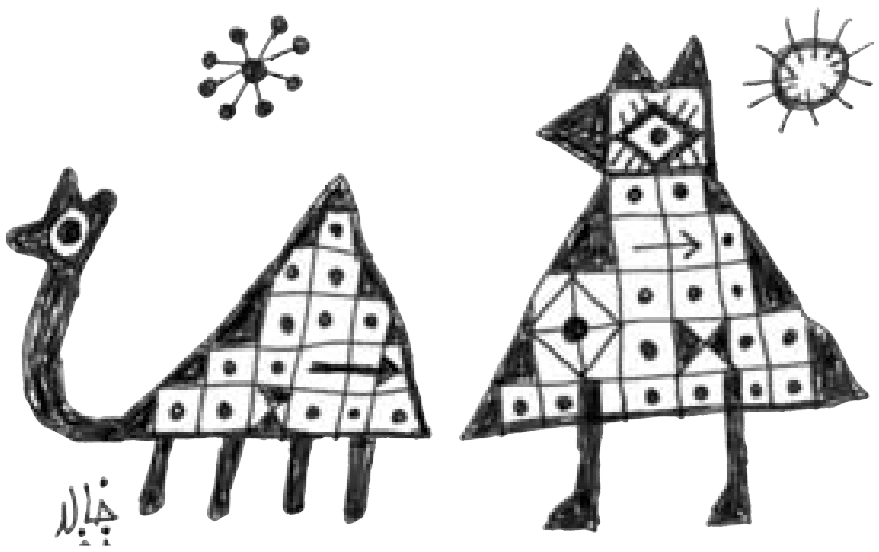

لأبقينّ على عهدك حتى ألقى الله.. ما أهون الحياة بدونك يا بن أبي عمار!!».

قال لها عبد الرحمن: «لعلك تذكرين قول الله تعالى «الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِيْنَ».

فتغير وجه سلاّمة كأنها ذكرت شيئاً لا تحبُّ أن تذكره، وقالت: «عفا الله عنك يا عبد الرحمن، أأردت أن تبكيني وتذكرني بشيء يؤلمني ويجرح قلبي؟».

فعرف عبد الرحمن ما تقصد، وأسف لإيلامها من حيث لا يريد فقال لها: «لا وربي ما أردت تبكيتك يا سلاّمة، وإنما أردت أن أبشرك وأذكرك قوله عز وجل«إلا المتقين»، فإنهم سيبقون أخلاءَ يوم القيامة».

فسرى عن سلاّمة وعاد الإشراق إلى وجهها وقالت: «فسأذكرها إذاً يا عبد الرحمن ولن أنساها ما حييت: «الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتَّقِيْنَ».

فقال عبد الرحمن: «الآن اطمأنّ قلبي فاذهبي يا حبيبتي حيث شئت، فإنك لي إن شاء الله».

فقالت سلاّمة: «نعم يا حبيبي.. أنا لك إن شاء الله».

ما أقصرها من ساعة مرّتْ على الحبيبين خيل إليهما أنها لحظة لم يقضيا فيها شيئاً، وقد قضيا كل شيء.

ودّع كلاهما صاحبه بعين دامعة ولكن بنفس مطمئنّة.

وما هي إلا ساعة وساعة حتى أزفَ الرحيل وخرج المعجبون بسلاّمة من أهل المدينة – وهم خلقٌ كثيْرٌ – يشيّعونَها من رجال ونساء وعلى وجوههم الكآبة والحزن، فمشوا خلفها وهي راكبة على بغلها فارهة[٥٣]، حتى وصلوا إلى سقاية سليمان بن عبد الملك في خارج المدينة حيث كان رُسُل الخليفة ينتظرونها بجمالهم وهوادجهم، فنَزلت عن بغلتها وقالت للرسل: «قومٌ كان يغْشَوْنَني ويسلّمون علي ولا بدّ لي من وداعهم والسلام عليهم، فهل تأذنون لهم ليسمعوا مني في هذه الرحبة[٥٤]، وأشارت إلى رحبة واسعة لقصر هناك.

فأخذ الرسل يتشاورون، فمنهم من أجاز ومنهم من منع، وطفق الذين أجازوا يستنزلون رفقاءَهم إلى رأيهم يقولون لهم: أترغبون عن سماعها فيتحدّث عنكم أهل المدينة بأنك غلفُ القلوب[٥٥]، غلاظ الأكباد؟ وما زالوا بهم حتى وافقوا لسلاّمة: «افعلي ما شئت على أن لا تطيلي اللبث».

فأشارت سلاّمة إلى الناس أن يدخلوا الرحبة لتودعهم بلحن تغنّيه لهم، فكادوا يطيرون من الفرح، وأخذوا يلهجون بالثناء عليها ويدعون لها.

وتدفقوا إلى الرحبة حتى غصت بهم، واشرأبت أعناقهم إلى سلاّمة وجعلوا يتطاولون[٥٦] ليروها حيث فرح الطوالُ بأنفسهم وكأن لهم يداً في طولهم، وأسف القصار لأنهم لم يكونوا طوالاً، وتمنّوا لو زيدوا شبراً ليروا سلاّمة وقد وقفت على موضع مرتفع خارج الرحبة وبيدها العود، فأخذت تضربه وتغني بلحن حزين وصوت مكلوم:

فَارَقُوْنِي وَقَدْ عَلِمتُ يَقِيناً
مَا لِمَنْ ذَاقَ فُرقَةً مِنْ إيَابِ
إنّ أهْلَ الْحِصَابِ قَدْ تَرَكُوْنِي
مُوْلَعاً خَاطِرِيْ بِأَهْلِ الْحِصَابِ[٥٧]

فقال رجل من المشيعين: «وا أسفاه عليك يا سلاّمة! إنا لن نسمعك بعد اليوم!».

وقال آخر: «ما أسعد أهل الشام بك!».

وصاحت إحدى النساء: «سلام على أيامك يا سلاّمة!».

واستمرت سلاّمة في غنائها:

إنّ أَهْلَ الْحِصَابِ قَدْ تَرَكُوْنِي
مُوْلَعَاً خَاطِرِيْ بِأَهْلِ الْحِصَابِ
أهلُ بَيْتٍ جَار الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ،
مَا عَلَى الدّهْرِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتابِ
كَمْ بِذَاكَ الْحُجُونِ مِنْ حيّ صِدْقٍ
وَكُــــهُوْلٍ أَعِــــفَّةٍ وَشَــبَابِ[٥٨]

وجعلت تكرّرُ هذا البيت وهي تدور بعينها في الجمع حتى لمحت عبد الرحمن بن أبي عمار واقفاً في أخريات الناس وإلى جانبه ابن سهيل وابن أبي عتيق وكلّهم ينتحب. فقطر الدّمع من عينها وأخذت تمسحه بمنديلها، وأخذت تغني بنغمة مختلفة عما قبل وقد ارتفع صوتها واشتد رنينه: «يا حبيبي! يا حبيبي! يا حبيبي!

يا حَبِيْبِي يَوْمُ الْفِرَاقِ عَذَابُ
لِلْمُحِبَّيْنَ يَا لَه مِنْ عَذَابِ!
وَعَزِيْزٌ عَليّ أَنْ لَيْسَ عِنْدِي
يَا حَبِيْبِي لِكَشْفِ هَذَا الْمُصَابِ
غَيْرُ نَارٍ فِي مُهْجَتِي فِي اتّقَادِ
وَدُمُوعٍ مِنْ مُقْلَتِي فِي انْسِكَابِ!

وَلَو اسْطَعْتُ بِعْتُ عُمْرِيْ بِيَوْمٍ
فِيْهِ أَلْقَاكَ يَا أَعَزّ الصِّحَابِ!

ثم غيرت نغمتها أيضاً وغنّت بصوت أهدأ وأنعم.

يا حبيبي! يا حبيبي! يا حبيبي!

يَا حَبِيْبِي إنْ جَارَ دَهْرٌ عَلَيْنَا
وَسَقَانا بِالْبَيْنِ مُرّ الشّرَابِ
فَاللّيَالِي تَفْنَى وَحُبّكَ بَاقٍ
فِي فُؤادِي وَمِثْلُ مَا بِكَ مَا بِيْ
شَهِدَ اللهُ أَنّ حُبّكَ عَفٌّ
سَيَكُوْنُ الشَّفِيْعَ يَوْمَ الْحِسَابِ

وصمتت لحظة ثم قالت وهي تجفّف دمعها: «شكراً يا أحبائي لحسن وداعكم.. أستودعكم الله جميعاً يا أهل طيبة! أستودعكم الله يا جيرة الرسول!».

وكانت الدّموع تنهمر من عيون القوم، وما منعهم من أن يصيحوا بالبكاء وقت غناء سلاّمة إلا إشفاقهم أن يفسدوه عليها، فلما انتهت من ذلك وأخذت تشكرهم وتستودعهم الله أطلقوا أصواتهم وصاحوا يبكون ويقولون:

«نستودعك الله يا سلاّمة! يحفظك الله يا سلاّمة!».

ونزلت سلاّمة عن النشز[٥٩] ومشت تخترق الجمع حتى وقفت أمام هودجها، فتلقاها ابن رمانة فصافحها مودّعاً، وتلاه ابن أبي عتيق فودعته شاكرة، وجاءَ ابن سهيل فصافحها فقبلت يده باكية، وتقدم ابن أبي عمار فصافحها قائلاً: «أستودعك الله يا سلاّمة!».

فأجابته باكية: أستودعك الله يا بن أبي عمار».

قال لها: «لا تنسي يا سلاّمة آية الذكرى».

فقالت: «لن أنساها يا عبد الرحمن».

قال: « الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ......».

فقالت: « بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا الْمُتّقِيْنَ ».

واستوت على هودجها فنهض الجمل البارك وتحرك الركب فتعالى صياح الجميع، وطفقت سلاّمة تشير بيديها تحييهم، ووقعتْ عينها على عبد الرحمن بن أبي عمار ينظر إليها ويفترّ ثغره عن ابتسامة تلمع بين الدموع وهو يردّد: «" إلا الْمُتَّقِيْنَ.. إلا الْمُتّقِيْنَ.».

وكانت تلك آخر نظرة لسلاّمة في عبد الرحمن ولعبد الرحمن في سلاّمة.

وكانت هذه آخر كلمة سمعتها سلاّمة من عبد الرحمن...

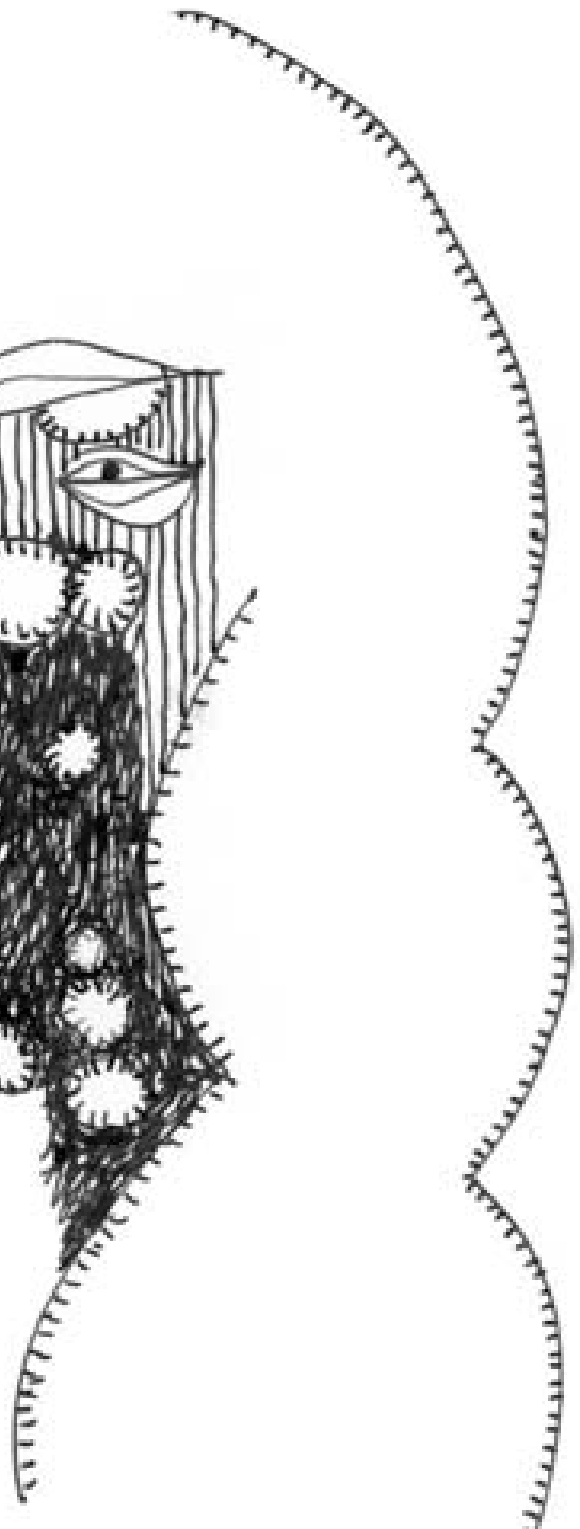

١– الحِزْبُ: ما يجعلُهُ الرّجل على نفسه من قراءةٍ وصلاةٍ كالوِرْد. وفي الحديث: طَرَأَ لَيَّ حِزْبي مَن القُرْآنِ، فأَحْبَبْتُ أَن لا أَخْرُج حتى أَقْضِيَه. « المحرر»

٢– القديد: اللحم المقدّد المُملّح والمجفّف في الشمس. والبُلغة: الكفاية « المحرر»

٣– الاقليد: المفتاح، معرب.. «المحرر»

٤– الجُمّة: هي مجتمع شعر الرأس وهي أكثر من الوفرة كما جاء في الصحاح« المحرر»

٥– الفاغية: فروع شجر الحنّاء.

٦– الأبيات من شعر عمر بن أبي ربيعة، وكان المغنون يغنون بها في المدينة « المحرر»

٧– القالة: القول.

٨– السرو: السخاء، وقوم سراة، أي كريمون ذوو غنى.

٩– الغُنّة في الصوت: الترخيم.

١٠– شاعر قريشي من العصر الأمويّ، ولقب بالرقيّات، لأنه تغزّل بأكثر من ثلاث نساء كل واحدة منهن اسمها رُقيّة. «المحرر»

١١– الأبيات كما يشير صاحب الأغاني ليزيد بن الطثرية، وهو أحدُ أشهر شعراء الحب في العهد الأموي.

١٢– الجفان: القِصاع الكبيرة.

١٣– هذه الأبيات هي لعبيد الله بن قيس الرقيّات والمطل: التسويف في أنجاز الوعد « المحرر»

١٤– المركن: وعاء كبير كالطست، تغسل فيه الثياب.

١٥– هذه الأبيات هي لعبيد الله بن قيس الرقيات « المحرر»

١٦– بعلت: أكثرت الجدال، جاء في حديث الشورى لعمر بن الخطاب «فمَنْ بَعَلَ عليكُم أمْرَكُم فاقْتُلوه» «المحرر»

١٧– استخرطت بالبكاء: أي اشتدّ بكاؤها.

١٨– أي لا يترك زيارته بل يعاودها.

١٩– المشربة: الغرفة، وسميت كذلك لأنها تكون مخصصة للشرب.

٢٠– البيتان من شعر عروة بن أذينة وهو من شعراء المدينة في القرن الثاني للهجرة.

٢١– قوارع العذاب: أي أعلى موضع في العذاب..

٢٢– الأبيات للحارث المخزومي وهو شاعر أموي من أهل مكة.

٢٣– أنف أقنى: مرتفع من الأعلى ومحدودب من وسطه.

٢٤– الطنافس: البُسُطُ .

٢٥– الزرابي: الوسائد.

٢٦– الخوان: المائدة.

٢٧– طبّة في الغناء: أي دائبة في تنميقه وتحسينه.

٢٨– الأبيات لعروة بن حزام في حبيبته عفراء.

٢٩– حرب عَوان: أي حرب مستمرة لا تنتهي.

٣٠– ناب: أي قَبِلَ توبته.

٣١– البيتان من شعر عبد الرحمن بن عمار القس. كما وردا في الأغاني.« المحرر»

٣٢– البيتان من شعر عبد الرحمن بن عمار القس. كما وردا في الأغاني.« المحرر»

٣٣– يضنّ: يبخل.

٣٤– جمجم الرجل بكلامه: أي تلفظ بكلام غير مفهوم.

٣٥– القينات: جمع قينة وهي الجارية.

٣٦– اهتبلها: انتهزها.. وغرة: غفلة.

٣٧– رقأ دمعه: سكن.

٣٨– بحر لجي: كثير الموج.

٣٩– أخنى عليه الزمان: مال عليه بشدائده.

٤٠– نَقَهتْ: أفاقت.

٤١– النجود: الطرق المرتفعة، والأغْور: الأغوار أي الأراضي المنخفضة.

٤٢– حصحص: بان وظهر، جاء في سورة يوسف:« الآن حَصحَصَ الحق، أنَا رَاوَدْتُه عن نَفْسِه وإنه لَمِنَ الصادقين»

٤٣– النحيزة: الطبيعة وقيل النفس.

٤٤– التبريز: السبق والتفوق، ومنه البروز.

٤٥– رفض الدمع: إذا ترشّشَ من العينيين.

٤٦– الوكد: الجهد والسعي.

٤٧– استمرأ: تقبّل واستساغ.

٤٨– الذلول: كلّ دابة يسهل ركوبها من الإبل والخيول وسواهما.

٤٩– النديّ: مجلس القوم، ومنه الندوة والنادي والمنتدى.

٥٠– بات ليلة نابغية: أي ليلة شديدة وقاسية، وهي مأخوذة من قول النابغة:

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيْلَة
مِنَ الرُّقْشِ في أَنْيَابِهَا السُّمّ نَاقِعُ
يُسَهّدُ مِنْ لَيْلِ التّمَامِ سَلِيْمُها
لِحَلْيِ النّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ « المحرر»

٥١– قرة: شديدة البرد.

٥٢– متع: ارتفع وطال.

٥٣– فارهة: نشطة.

٥٤– الرحبة: الفسحة.

٥٥– قُلوب غُلف:أي أحيطت بغلاف فهي صُمٌّ، وفي الحديث: يَفْتَح قُلوباً غُلْفاً أَي مُغَشّاة مغطاة.

٥٦– يتطألون: يتطاولون.. أي يرفعون من قاماتهم بين الجموع.

٥٧– الحصاب: موضع رمي الحصى بمنى في مكة.

٥٨– الحجون: جبل بأعلى مكة فيه مدافن أهلها كما جاء في معجم البلدان« المحرر»

٥٩– النشز: المكان المرتفع.